



الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

دراسات عن المفيزكا

مجموعة أبحاث

اشترك في إعدادها:

الأستاذ حسن عبد الوهاب
الدكتور إبراهيم أحمد رزقانه
الدكتور محمد محمود الصياد

الدكتور محمد مصطفى زيادة
الدكتور جمال الدين الشيال
الأستاذ محمد عبد الله عنان

الرئاسة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

دراسات عن المفيزيكا

المكتبة العربية

تصدرها

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

وزارة الثقافة



الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

دراسات عن المفيزكا

مجموعة أبحاث

اشترك في إعدادها:

الأستاذ حسن عبد الوهاب
الدكتور إبراهيم أحمد رزقانه
الدكتور محمد محمود الصياد

الدكتور محمد مصطفى زيادة
الدكتور جمال الدين الشيال
الأستاذ محمد عبد الله عنان

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

تنهض الجمعية المصرية للدراسات التاريخية برسالة ضخمة في نهضتنا المعاصرة ، فهي حريصة كل الحرص على الاسهام في حركة احياء التراث العربى القديم ، وتوجيه أنظار المحدثين من الأجيال الصاعدة الى ما فى هذا التراث من قيم فكرية وخلقية واضحة ، وبذلك لا يظل التاريخ أداة ميتة ترتبط بالماضى فحسب ، وانما يصبح علما بناء « يخدم الحاضر والمستقبل ، ويربط بين القديم والجديد . »

ولما كانت رسالة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية تتفق فى هذا الجانب مع رسالة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، فان التعاون بين هاتين الهيئتين العلميتين صار وثيقا من أجل تحقيق أهداف كبرى ، مشتركة . وظهر هذا التعاون فى عديد من المشروعات العلمية الناجحة ، منها هذا المشروع الخاص باحياء ذكرى المؤرخين العرب على نحو يصور حياتهم وعصورهم وأسلوب كل منهم وطريقته فى علاج التاريخ ؛ فضلا عن القاء مزيد من الضوء على مؤلفاتهم وأهميتها .

واليوم نقدم لأبناء الأمة العربية بوجه عام والمشتغلين بالتراث العربى والدراسات التاريخية بوجه خاص ، هذا الكتاب الذى هو فى

حقيقة أمره ثمرة من ثمرات هذا التعاون المشترك بين المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية من ناحية ، والجمعية المصرية
للدراستات التاريخية من ناحية أخرى .

وموضوع هذا الكتاب أحمد بن على المقرئى ، شيخ المؤرخين
العرب فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر للميلاد ، وصاحب العقلية
الفذة والنظرة الأمينة النفاذة التى ربطت بين الجانبين السياسى والحربى
لعلم التاريخ من ناحية ، وبين جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والطبيعية
من ناحية أخرى ، مما جعل كتابته تنفرد بمسحة فريدة من اتساع الأفق
والعمق الفكرى .

ويشتمل هذا الكتاب على ثمانية أبحاث أعدها نخبة من الأساتذة
المتخصصين ، وألقيت سنة ١٩٦٦ فى حلقة عن المقرئى نظمتها الجمعية
المصرية للدراستات التاريخية بالتعاون مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون
والآداب والعلوم الاجتماعية . ولئن كان نشر هذه الأبحاث قد تأخر
لأسباب خارجة عن ارادتنا ، فائنا نأسف لهذا التأخير ، ونسأل الله أن
يوفقنا دائما الى خدمة تراثنا العربى المجيد .

أحمد عزت عبد الكريم

شوال ١٣٩٠

رئيس الجمعية المصرية للدراستات التاريخية

ديسمبر ١٩٧٠

أحمد بن على المقرئى

للاستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

الجديرون بالتقدير والمحبة من المواطنين فى أى عصر من العصور هم الذين يعطون لوطنهم من الخدمة أكثر مما يأخذون منه ، ويقدمون له من الخير أكثر مما يصل الى أيديهم من المنفعة لأنفسهم . ومن أولئك فى دائرة المؤرخين فى مصر أحمد بن على المقرئى المولود سنة ١٣٦٤م (٧٦٦هـ) ، بحارة برجوان بقسم الجمالية بمحافظة القاهرة الحالية ، والمتوفى بها سنة ١٤٤٢م (٨٤٥هـ) ، وهو فى سن الثمانين بالحساب الهجرى ، وها نحن باسم المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وفى قاعة المحاضرات بدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، نحتفل لأول مرة بذكرى مرور أكثر من ستمائة سنة على ميلاد هذا المؤرخ العظيم ، سواء بالحساب الميلادى أو الهجرى .

ومنبع استحقاق أحمد بن على المقرئى للاحتفال والتكريم ، بينا نحن المصريين ، مؤلفاته الخالدة الفائقة فى مختلف العلوم الاجتماعية فى عصره ، وبهذه المؤلفات ينال المقرئى أعلى المؤهلات والدرجات التى تستخدمها الهيئات الأكاديمية الحديثة ، فى تصنيف طبقات المؤرخين الباحثين ، فهو أستاذ مبتكر مثابر صابر أمين فى كل أعماله العلمية وهو بجلوسه الفعلى والمجازى فى كرسى الأستاذى العالى ، بين أجيال تلاميذه ، ومريديه وقارئيه حتى العصر الحاضر ، فضلا عن أجيال مشايخه وسابقيه المباشرين وغير المباشرين ، جدير كذلك بأن يسمى

عميد المؤرخين السالفين جميعا ، من ابن عبد الحكم الى الجبرتي .
وهذه الجدارة صادرة من ثلاثة اعتبارات ، أولها أخلاقه الشخصية ،
وما فيها من ايمان بحب الوطن ، وايمان بالاستقلال في الرأي ، وايمان
بضرورة الاستمرار في المناداة باصلاح الأمة كلها ، وأحوالها العامة ،
لا أحوال طبقة معينة دون غيرها من الطبقات ، وثانيها صفات مؤلفاته
نفسها ، من حيث الدقة في ايراد الحقائق ، والتخصص المتنوع وحسن
التوزيع ، والنسبية ، والمنظورية ، وثالثها ما أودع المقرئ في الأجزاء
غير المعاصرة من مؤلفاته التاريخية من اقتباسات طويلة وقصيرة ، من
أمهات ووثائق لا تزال أصولها منفقودة .

وعندما أخذت في الحبو على ركبتى نحو الأمهات والمصادر
العربية الكبرى في تاريخ مصر العصور الوسطى ، وذلك منذ أربعين
سنة ، لم ألبث وقتذاك أن وجدتني رافعا رأسي لأنظر في مخيلتي الى
رجل بيده اليمنى كتاب ، وصورته الخيالية لا تزال تذكرني حتى العصر
الحاضر بصورة الملاك الباسم في الفن الأوربي في العصور الوسطى ،
ذلك أحمد بن علي المقرئ ، وييمينه كتابه السلوك في معرفة دول
الملوك ، وهو أول ما قرأت وأفدت من مؤلفاته التاريخية وغير التاريخية
الكثيرة .

ثم استقام لي الشرف والفخر أن أكون أول مجتهد في اخراج هذا
الكتاب الكبير ، من ظلمات المخطوطات القديمة الى نور المطبوعات
الحديثة ، بفضل اعانة مالية كريمة من وزارة المعارف العمومية وقتذاك
الى لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مع العلم بأن أجزاء معينة من
هذا الكتاب ظهرت قبل ذلك مترجمة الى الفرنسية ، على يد المستشرقين
الفرنسيين اتين كاترمير واميل بلوشيه ، سنتي ١٨٣٧ ، ١٩٠٨ . وكانت
الحملة الفرنسية النابليونية على مصر في أوائل القرن التاسع عشر ،
واستيلاء علمائها على كثير من المخطوطات العربية سببا من الأسباب
التي ساعدت على سبق هذين المستشرقين وغيرهما من العلماء الأوربيين

الى نشر كثير من المصادر العربية مترجمة ، أو في لغتها الأصلية .
ثم كان من حسن الحظ أن عثرت في مكتبة فاتح كتبخانى
باستنبول على الجزء الأول من كتاب السلوك بخط المقرئى نفسه ،
كما عثرت بدار الكتب المصرية على مخطوطة تحتوى صفحة العنوان
منها على توقيع المقرئى بيده ، بما يفيد قراءته تلك المخطوطة والافادة
منها ، مع الدعاء لمؤلفها بالرحمة والغفران ، على عادة العصور السابقة
على عصر الطباعة والكتب المطبوعة . وليس العثور على مخطوطة
مكتوبة بخط مؤلفها ، أو العثور على توقيع مؤلف في غلاف مخطوطة
قديمة قرأها شيئاً نادراً ، لكنه شيء حسن استعنت به على تصوير
بعض صفات المقرئى لنفسى ، على قدر طاقتى في قراءة صفات الناس
من خطوطهم ، كما استعنت به على فهم ترتيب المقرئى وطريقته في
تأليف كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك بالذات ، فضلاً عن تقدير مدى
اختياره وإطلاعه واستخدامه كتب السالفين في بناء الأجزاء الافتتاحية
من ذلك الكتاب .

ولأول نظرة يرى القارئ لكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، في
صورته المطبوعة المتداولة ، أن المقرئى أودع في صفحة العنوان من
هذا الكتاب شيئاً من صفاته الشخصية ، حيث يقول بعد كتابة اسم
الكتاب واسمه هو ما يأتى — وكأنما يخاطب نفسه — : لا أحوجك
الله الى اقتضاء ثمن معروف أسديته ، ولا ألجأك الى قبض عوض عن
جميل أوليته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هى العليا ، وأعاذك
من عز مفقود ، وعيش مجهود ، وأحياك ما كانت الحياة أجمل لك ،
وتوفاك اذا كانت الوفاة أصلح لك ، بعد عمر مديد ، وسمو بعيد ،
وختم بالحسنى عملك ، وبلغك فى الأولى أملك ، وسدد فيها مضطربك ،
وأحسن فى الأخرى منقلبك ، انه سميع قريب ، جواد مجيب .

ولا يكاد القارئ ينتهى من هذه العبارة الوعظية حتى ينتقل الى
عبارة تاريخية هامة فى أصل الأكراد ونسبهم ، تمهيداً للدخول فى تاريخ

الدولة الأيوبية في مصر والشام ، وهى موضوع الجزء الأول من كتاب السلوك . ثم لا يكاد القارىء ينتهى من هذه العبارة الثانية حتى يجد نفسه متنقلا ، فى غير جهد أو عناء عقلى ، بين عناوين تاريخية متعاقبة ، ذوات فصول قصيرة ، مجموعة فى مهارة علمية واضحة من مصادر عربية أصلية مشهورة ، وكلها فصول مؤدية فى سرعة محموددة لتاريخ الأيوبية ، وكل ذلك فى صفحات لا تعدو أربعين صفحة مطبوعة ، تبدأ بذكر ما كان عليه الكافة قبل قيام ملة الاسلام وتنتهى بانتهاء الدولة السلجوقية ، وكان باستطاعة المقرئ أن يقف ليستطرد فى أى موضوع من المواضيع التاريخية الواقعة بين هذه البداية والنهاية ، ولكن الاستطراد لم يكن من صفاته فى هذا الكتاب أو عنده من كتبه ، ثم أنه لم يكن بحاجة الى الوقوف للاستطراد ، لأنه سبق أن رسم لنفسه خطة مرتبة استهدف بها أن يكتب تاريخ كل دولة من الدول الاسلامية فى مصر حتى عصره فى تأليف مستقل ، وبدأ هذا الترتيب التاريخى بكتاب البيان والاعراب فيمن دخل مصر من الأعراب ، ثم أعقبه بكتاب عقد جواهر الأسفاط فى أخبار مدينة القسطنطينية ، وهو تاريخ لمصر منذ الفتح العربى الى قيام الدولة الفاطمية بها ، ثم تلا ذلك بكتاب فى الدولة الفاطمية سماه المقرئى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء ، ثم كتب بعد ذلك كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك .

وسار المقرئى فى هذا الكتاب ، بعد الفصول الافتتاحية التقديمية التمهيدية ، على نظام الحوليات الشاملة لعهد كل سلطان من السلاطين . وذلك بأن دون حوادث كل عام تدوينا مستقلا ، وتحت عنوان هو اسم ذلك العام ، بخط كبير ومداد غير مداد المتن ، ثم ختم هذه الحوادث بذكر الوفيات الواقعة فى ذلك العام ، مع الترجمة لأصحابها فى شيء من الاختصار العام . ثم انتقل الى العام التالى فجعل له عنوانا جديدا ، وسجل حوادثه على ذلك النمط التقليدى الرتيب . وهكذا دون أن يؤلف من كتابه موضوعا متصلا ، أو أن يربط بين سنة وأخرى ،

ما عدا انه افتح السنة أحيانا بذكر الوظائف الكبرى ومن عليها ، وهذا في الغالب اذا جاءت فاتحة السنة موافقة لقيام سلطان جديد ، وحدث تغيير وتبديل وتعديل بين موظفي الدولة والبلاط والسلطاني . واعتاد المقرئ كذلك أن يكتب اسم السلطان الجديد بخط كبير ومداد مخالف ، غير أنه لم يجعل من ذلك وقفة يلخص فيها أو يفلسف ، بل اكتفى بعبارات حاذرة في أصل السلطان وماضيه ، ثم انتقل الى ذكر الحوادث والأسباب حسب ترتيبها الزمني على قدر الامكان ، وهكذا الى أن صار الكتاب كلما قرب المؤلف من عصره سجلا يوميا طويلا ضافيا بأخبار ما يقع بمصر وجاراتها من الحوادث الكبرى والصغرى . ويتخلل هذا السجل الطويل شيء من أسعار المحاصيل وأحوالها ، أو فيضان النيل ، أو هبوب ريح سوداء ، أو تفاصيل جدل أدبي ، أو أدوار محنة فقهية ، أو تعديل في نظم الحكم والجيش والدواوين ، أو وصف مسجد أنشأه سلطان أو أمير أو نص رسالة أرسلها ملك من ملوك البلاد المجاورة ، وجواب السلطان عليها ، وذلك فضلا عن الوفيات والتراجم التي تطول أو تقصر بحسب مقاييس المقرئ ومزاجه ، أو بحسب القيمة السياسية أو الاجتماعية أو العلمية للمترجم له .

ومن حسن الحظ مرة أخرى أن المقرئ عاش حتى بلغ الثمانين من العمر ، وانه عكف على الكتابة والاضافة الى كتابه السلوك حتى آخر سنة من حياته العامة . ولذا جاء هذا الكتاب في أربعة أجزاء ضخمة ، الأول والثاني منها طبوعان ، والثالث والرابع مخطوطان حتى الآن . وعندى من هذين الجزئين المخطوطين نسخة مكتوبة بقلم نسخي أنيق فاخر ، لخزانة الأمير يشبك بن مهدي الداوودار ، صاحب القبة الفداوية بالعباسية الحالية ، وتاريخ هذه النسخة سنة ٨٨٠ هـ ، أي بعد خمس وأربعين سنة فقط من وفاة المقرئ ، ومرجع أناقة

قلمها النسخى الفاخر أن الناسخ المجهول كان سجيناً من مساجين
العصر المملوكى ، وأراد أن يجعل من خطه الجميل شفيحاً يضمن له
الخروج من السجن ، كما جاء فى قوله فى حرد الخاتمة .

هذا قليل من كثير بشأن كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، لأحمد
ابن على المقرئى ، والفضل فى هذه المعلومات يرجع الى قيامى على نشر
أجزاء هذا الكتاب الكبير منذ سنة ١٩٣٠ م .

أما كتاب المقفى الكبير ، وهو كذلك فى أربعة أجزاء ضخمة ،
فلا يزال سابحاً فى ظلمات المخطوطات التى تنوء بها مكتبات الشرق
والغرب ، وكله مخطوط لم تمتد اليه أية جهود تحقيقية جزئية أو كلية
حتى الآن لنشره ، ما عدا صفحتين اثنتين منه لشخصيتين مصريين
قديمتين ، قام بنشرهما حديثاً الأستاذان مصطفى مسعد و خليل عساكر
فى مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . ولذا ليس لدى ما أقوله
فى هذا الكتاب سوى قليل من قليل ، وملخص ذلك القليل أن المقرئى
أراد أن يجعل من هذا الكتاب معجماً قومياً كبيراً لتراجم حكام مصر
ورجالها ونسائها والواردين عليها ، منذ أقدم العصور التاريخية
المعروفة له الى ما قبل عصره ، وبذا يكون المقرئى أول المفكرين فى
كتابة معجم قومى للأعلام المصرية ، وهو ما نعمل نحن الآن فى ارساء
قواعده وترتيب خطواته الأولى ، وفاتحة هذه الخطوات اللازمة للسير
فى نشر كتابه المقفى تقرير معروض على الجهات الرسمية المختصة
للحصول على صور ميكروفيلمية من مختلف النسخ المقطوع بوجودها
من هذا الكتاب الكبير فى مكتبات الشرق والغرب ، لنشره فى صورة
نهائية محققة تجعله جديراً بأن يكون القاعدة والمادة لبناء المعجم القومى
الكبير .

تاريخ حياة المقرئى

للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

أحمد بن على المقرئى مولود سنة ١٣٦٤ ميلادية بحارة برجوان بقسم الجمالية بمحافظة القاهرة الحالية ، فى أسرة معروفة أجيالها السابقة بالاشتغال بالعلم بدمشق وبعلبك والقاهرة ، أى أنه شهد حوادث عصره من زاوية أبناء الفئة الفكرية من الطبقة الوسطى على قول المصطلح الاجتماعى فى العصر الحاضر فهى فى مجموعها نوبات احتضار وذبول وأفول فى دولة مملوكية ذات بطولات شامخة سالفة ، وأمجاد ماضية .

ولعشرين سنة هى سنوات طفولته ومراهقته ، وشبابه ، شهد أحمد المقرئى حوادث ذلك العصر الآفل من نافذته الفكرية المصرية البعيدة عن شئون الدولة المملوكية وأمرائها الذين جعلوا من السلاطين الأطفال وأشباه الأطفال وقتذاك ، ستارا رقيقا شفافا ساذجا يعملون من وراءه لتحقيق مطامعهم .

وفى وسط تلك الحوادث الصاخبة المتقلبة ، عكف الشاب أحمد المقرئى على الدراسة التقليدية لأبناء طبقته ، وهى دراسة علوم الدين وحفظ القرآن ومعرفة النحو ، ودراسة الفقه والتفسير والحديث ، وبعض العلوم الأخرى مثل التاريخ وتقويم البلدان والأدب والحساب .

غير أن نظرة عابرة فى مؤلفاته المستقبلية تدل دلالة واضحة على مدى تأثيره بمحيطة من الحوادث المضطربة ، ومثله فى ذلك مثل أستاذه

عبد الرحمن بن خلدون الذى رأى ما بإسبانيا الإسلامية وشمال إفريقيا من تفكك وانحلال وفساد وفتنة ، فألهمه ذلك تأليف تاريخه المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، كما ألهمه كتابة المقدمة المشهورة التى غدت منذ تأليفها أساسا لدراسة تجارب الأمم ، وعوامل التطور فى المجتمع ، وأسباب انهيار الدول .

وترددت هذه النعمة الاقتصادية الاجتماعية التاريخية فى مؤلفات أحمد المقرئى ، لأسباب : أولها : أنه تتلمذ لعدة سنوات على ابن خلدون ، اذ جاء هذا المؤرخ الكبير — وهو أبو علم الاجتماع وفلسفة التاريخ — لاجئا الى القاهرة من موطنه تونس ١٣٨٢م ولم يلبث أن عقد خلال اقاماته المديدة بها حلقات دراسية كثيرة ، وصارت هذه الحلقات الدراسية نواة لمدرسة فكرية تخرج فيها المقرئى وغيره من معاصريه ، ومنهم أحمد بن حجر العسقلانى وعبد الرحمن السخاوى .

وثانيا : المحيط المملوكى الذى انغمرت فيه مصر وأهلها ، على حين عاش سلاطين المماليك وامراؤهم فى حزبية وعصبية عنصرية انتحارية بين الأتراك والجراكسة مرة ، وبين المماليك .. المتوطنين والوافدين مرة أخرى .

ثالثا : أن أسرة المقرئى جاءت الى مصر حديثا فى حياة أبيه من موطنها فى بعلبك ببلدان الحالية ، ولا بد أن امتلأت أحاديث أسرته بوصف خصائص الحياة المصرية الجديدة عليها وبمقارنتها بالحياة فى لبنان ، فتولدت فيه روح الاستطلاع والفحص منذ طفولته ومراهقته وشبابه .

والتحق المقرئى بالخدم الحكومية ، بعد أن غدا بحكم طبقته وتعليمه من أهل القلم والمعرفة ، وهى التسمية المخصصة لهذه الطبقة

تميزا لها من طبقة أهل السيف ، وهم المماليك وحدهم ، دون غيرهم
من سكان البلاد المصرية والشامية جميعا .

وأول عهد المقرئى بالخدم الحكومية كأييه من قبله ديوان الانشاء
بالقلعة ، وهو الديوان الذى يقابله فى العصر الحاضر وزارة الخارجية
فعمل المقرئى الشاب سنة ١٣٨٨ موقعا — أى كاتباً — وهى وظيفة
لا يبلغها قنذاك سوى أصحاب المؤهلات العالية والموهبة والمعرفة ،
والتفوق فى اللغة والأدب والتاريخ

ثم تعين المقرئى نائبا من نواب الحكم — أى قاضيا — عند قاضى
قضاة الشافعية بسبب ما اشتهر عنه من الحماسة للمذهب الشافعى منذ
أيام دراسته ، وتحوله عن مذهب الحنفية الذى نشأ فيه ، ثم صار
المقرئى أماما لجامع الحاكم الفاطمى وهى وظيفة كبيرة فى ذلك العصر.

وتولى المقرئى بعد ذلك وظيفة مدرس للحديث بالمدرسة
المؤيدية ، وهى وظيفة يقابلها فى المصطلح الجامعى فى العصر الحاضر
أستاذ ذو كرسي . وربما كان تعيين أحمد المقرئى فى تلك الوظيفة
التعليمية العالية بتوصية خاصة من أستاذه عبد الرحمن بن خلدون
لدى صديقه السلطان برقوق .

ثم انتقل المقرئى من التدريس الى الحسبة ، حين عينه السلطان
برقوق سنة (١٣٩٨ م) محتسبا للقاهرة والوجه البحرى ، فانتقل
بذلك من دائرة المشتغلين بالعلم والتعليم الى دائرة الادارة والاختلاط
بمختلف الطبقات المجتمع . ذلك أن وظيفة المحتسب التى يقابلها فى
الوقت الحاضر عدة وظائف وزارية شملت وقتذاك النظر فى الأسعار
الجارية ، وأحوال النقود ، وضبط الموازين والمكايل والمقاييس
ومراقبة الآداب العامة ونظافة الشوارع وتنظيم حركة المرور ، مع
الاشراف على المدارس والمدرسين والطلاب والعناية بالمساجد

والحمائم والوكالات فضلا عن مراقبة أصحاب الصناعات الفنية من الأطباء والصيدلة والمعلمين أى المهندسين المعماريين .

ويضاف الى هذه الواجبات الكثيرة الداخلة فى اختصاص المحتسب أحوال الباعة الجائلين ، والمتعيشين والشحاذين والمتعطلين الذين كانوا خطرا دائما على الأمن .

ويتضح من ضخامة هذه الوظيفة ومسئولياتها أن أحمد بن على المقرئ الذى تعين عليها بأمر السلطان برقوق ، لا بد أنه اشتهر وقتذاك بالكفاية والدقة فى الإدارة والأمانة فى تطبيق الأحكام الشرعية .

غير أنه لم يلبث أن تنحى عن هذه الوظيفة مرتين فى عامين متتاليين ، اذ ضاق بمسئولياتها التى شغلت وقته ليلا ونهارا وصرفته عن القراءة ، ونظمت منه الجلوس فى دكة المحتسب ، بوابة المتولى الحالية ، للفصل فى شكاوى السوق والسوق ، وتوقيع العقوبات على المخالفين واصدار الأوامر الى العرفاء والأعوان والنقباء ، مع العلم بأن وظيفة محتسب القاهرة شملت الوجه البحرى كله .

وحوالى ذلك الوقت تزوج أحمد المقرئ وانجب ، اذ المعروف أن بنتا له ماتت فى سن السادسة بالطاعون الذى اجتاح القاهرة وسائر البلاد المصرية سنة ١٤٠٣ . وهذا الطاعون بالذات هو الذى دفع أحمد المقرئ الى تأليف كتابه « اغاثة الأمة بكشف الغمة » . كما دفعه ضيقه بوظيفة الحسبة ومسئولياتها الى تأليف كتاب « شذور العقود فى ذكر النقود » وكتاب « الأكيال والأوزان الشرعية » .

ويبدو أن بعض هذه الكتب الصغيرة كانت أوائل عهد المقرئ بالتأليف ، كما يبدو من محتوياتها جميعا مدى تأثير عبد الرحمن بن خلدون فى التكوين الفكرى عند تلميذه الموهوب .

لكن المقرئ عاد الى ممارسة التدريس مرة أخرى ، حين عينه السلطان برقوق سنة ١٤٠٨ مدرسا للحديث بالمدرستين الاقبالية والاشرفية بدمشق ، مع التنظر على أوقاف المارستان — أى المستشفى — النورى بها . ثم عينه السلطان فرج بن برقوق نائبا للحكم — أى قاضيا — بدمشق ، استيفاء لشرط الواقف أن يكون المتعينون على الأوقاف الدمشقية قضاة بها .

لكن المقرئ أبى قبول هذا الشرف على الرغم من عرض الوظيفة عليه مرارا ، ويظهر أنه سئم الخدمة الحكومية ، وضاق بتكاليفها وأعبائها ، وانه حصل من المواد البالية التى جاءت من الوقف ، وما ورثه من الأملاك عن جده لأبيه بدمشق نفسها ما أغناه عن تضيق وقته فى كسب العيش عن طريق مجالس الحكم والقضاء .

ويظهر كذلك أن المقرئ استطاع أن يكتب أول مؤلف من مؤلفاته الطويلة فى هذه السنوات الدمشقية من حياته ، وهو كتاب السيرة النبوية الذى عنوانه « امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والأحوال والأتباع » وهو كتاب مشحون باقتباسات متتالية من مؤلفات السابقين فى تاريخ السيرة .

والى تلك السنوات الدمشقية من حياة المقرئ يرجع كذلك كتاب « النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم » وهو كتاب مستمد من فكرة العvisية القبلية التى بنى عليها ابن خلدون معظم نظرياته فى فلسفة التاريخ .

ثم رحل المقرئ عن دمشق بعد اقامته بها نحو عشر سنوات وعاد الى القاهرة ليتوفر على الدرس والتدريس والتأليف الذى وضعت موهبته فيه بما أخرج من المؤلفات الصغيرة . غير أنه تراءى له أن يحج أولا ، كأنما أراد أن يفصل بين مرحلتين من حياته ، ومن أجل ذلك

رحل المقرئى وأسرتة حاجا الى مكة التى عرفها هو قبل ذلك ، وجاور بها مدة قصيرة ابان طلبه العلم على أنه ظل مقيما بمكة هذه المرة نحو ما يقرب من خمس سنوات .

واشتغل فى تلك المرحلة المكية من حياته بتدريس الحديث ، وربما يرجع تأليف كتابه الذى عنوانه «الكلام ببناء الكعبة بيت الله الحرام» وكتاب « ضوء السارى فى معرفة تميم الدارى » وكتاب « التبر المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك » وكتاب « وصف حضرموت العجبية » — الى هذه السنوات المكية ، فانها كلها كتب صغيرة خاصة بمحيط بلاد العرب وأخبارها .

ومن الراجح أن الكتاب المسمى « الاعلام بمن فى أرض الحبشة من ملوك الاسلام » يرجع كذلك الى هذه المجموعة المكية .

ثم استقر أحمد المقرئى بعدئذ بالقاهرة حيث أمضى بقية حياته الطويلة بحارة برجوان التى ما برح منذ شبابه يفاخر بها على سائر الحارات القاهرية .

وبدأ المقرئى نشاطه العلمى فى هذه المرحلة القاهرية من حياته بكتاب تاريخ القاهرة المسمى «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو الكتاب المشهور باسم الخطط لأنه توفر فيه على دراسة المعالم القاهرية من حارات وشوارع ودروب وقياسر وحمامات ورباع وأسواق ومدارس وخواتق ومستشفيات ، فضلا عن أخبار المدن المصرية الكبرى ، وتراجم رجال الدول ونظم الحكم فى مختلف العصور .

ويتضح من اتجاه مؤلفات المقرئى بعد ذلك أنه رسم لعمله المستقبل ترتيبا تاريخيا استهدف به أن يكتب تاريخ كل دولة من الدول الإسلامية فى مصر حتى عصره فى مؤلف مستقل

وبدأ المقرئى هذا الترتيب التاريخى بكتاب « البيان والاعراب
فيمى دخل مصر من الاعراب » ثم اعقبه بكتاب « عقد جواهر الاسقاط
فى اخبار مدينة الفسطاط » وهو تاريخ لمصر منذ الفتح العربى حتى
قيام الدولة الفاطمية . ثم تلا ذلك كتاب فى الدولة الفاطمية سماه
المقرئى « اتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الخلفا » ثم بعد ذلك كتاب
« السلوك لمعرفة دول الملوك » فى أربعة أجزاء ضخمة ، وهو الكتاب
الذى غدا أساسا لجميع التواريخ المصرية فى عصر الدولتين الأيووية
والمملوكية .

ومن الملحوظ أن المقرئى كتب المؤلفات المتقدمة لتكون كلها ذىلا
على كتاب « المواعظ والاعتبار » وأنه قصد فى كل منها أن يشرح
ما أجمله من أخبار الدولة الإسلامية المصرية فى ذلك الكتاب الكبير .
ويظهر أنه عكف أثناء تأليفه هذا الكتب المتقدمة على اعداد المادة
التاريخية لكتاب كبير آخر فى التراجم والسير ، وعنوانه « المقفى
الكبير » وهو كتاب رغب المقرئى أن يجعل منه معجما كبيرا لتراجم
حكام مصر ورجالها الواردين عليها ، منذ أقدم العصور التاريخية
المعروفة لديه الى ما قبل عصره .

أما كتاب « دور العقود الفريدة فى تراجم الاعيان المفيدة » ،
فقصد به المقرئى أن يكون معجما محليا لشخصيات عصره ، وربما
بدأ الكتابة فيه وهو ماض فى ترتيب معجمه الكبير .

وكما جعل المقرئى كتاب « المواعظ والاعتبار » أساسا تفرعت
عليه مؤلفاته التاريخية فى مختلف مراحل التاريخ المصرى فى العصور
الوسطى ، فانه استوحى ذلك الكتاب واستهله لتأليف كتاب فى
التاريخ القديم عنوانه « الخبر عن البشر » وهو عنوان يوحى الى
الذاكرة بعنوان كتاب ابن خلدون المشهور .

ثم ألف المقرئى أول كتاب مستقل من نوعه فى اللغة العربية هو « شارع النجاة فى تاريخ الأديان » . كما تناول بالتأليف موضوعات صغيرة مرتبطة بالمجتمع الذى عاش فيه ، وهى كذلك موضوعات من وحى كتاب « المواعظ والاعتبار » مثل كتاب الوزارة .

وللمقرئى كذلك كتب صغيرة أخرى لا ينتظر الباحث انصرافه اليها مثل « المقاصد السنية فى معرفة الحال فى الغناء » وكتاب « الاشارة والايماء فى حل لغز الماء » .. وربما كان مرجع تأليف هذه الكتب المتنوعة الى أيام ولايته وظيفه الحسبة .

وزادت مؤلفات المقرئى الكبرى والصغرى على مائة كتاب ، ويتعجب المعاصرون والمتأخرون ان ينسب ذلك العدد الوافر من الكتب الى مؤلف واحد . وهذا التعجب لا يقتصر على مؤلفات المقرئى ، بل يتعداه الى مؤلفات كثير من المؤرخين وغير المؤرخين فى العصور الوسطى فى الشرق والغرب .

أما تفسير ذلك فهو أن بعض الكتب الصغرى التى كتبها المقرئى أو غيره من المؤلفين فى تلك العصور لم تعد موضوعا بذاته أو حادثة بعينها ، وبعض هذه الكتب لا يزيد على مقالة طويلة فى مجلة أسبوعية أو شهرية أو ربعية أو نصف سنوية فى العصر الحاضر وهذا البعض يتسم فى الواقع بالطابع الصحفى لتتوير أرباب الدولة وذلك قبل أن تصبح الصحافة جزاء من مقومات المجتمع .

ولهذا ينبغى أن تعد الكتب الصغرى بمثابة أول محاولة صحفية لتكوين ما هو معروف باسم رأى العام فى المصطلح السياسى الحديث .

وبهذه المؤلفات المتنوعة الفائقة فى التاريخ وعلومه المساعدة ينال المقرئى أعلى المؤهلات والدرجات التى تستخدمها الهيئات العلمية الحديثة فى تصنيف طبقات المؤرخين الباحثين . فهو أساذ مبتكر مثابر

صابر أمين في كل أعماله العلمية وغيرها ، وهو بجلوسه الفعلى والمجازى في كرسية الأستاذى العالى بين أجيال مشايخه وسابقيه المباشرين وغير المباشرين في الأستاذية جدير بأن يسمى عميد المؤرخين في مصر من ابن عبد الحكم الى الجبرتى .

وهذه الجدارة صادرة عن اعتبارات ثلاثة :

أولها : اخلاقه الشخصية وما فيها من ايمان بحب الوطن ، وايمان بالاستقلال فى رأى ، وايمان بضرورة الاصلاح فى مختلف طبقات الأمة المصرية .

وثانيا : صفات مؤلفاته نفسها

وثالثا : مجموعة ما أودعه فى مؤلفاته هذه من اقتباسات طويلة وقصيرة من أمهات وثائق لا تزال اصولها مفقودة .

وبعد ، فان مؤلفات المقرئى وغيره من قدماء المؤلفين السابقين فيه لا تزال توصف بأنها كتب صفراء باهتة المعرفة ، مع العلم بأنها كتب سبقنا المستشرقون الى كتابة تاريخنا منها ، فى مؤلفات أوربية وأمريكية بيضاء ناصعة المعرفة . وأقول ان هذه الكتب العربية القديمة الحافلة باصول التاريخ المصرى ليست باهتة المعرفة كما ينعتها بعض الناعتين المحدثين بل تشف بمحتوياتها عن ألوان زاهية مضيئة لمعرفة مصر وأهلها فى العصور الوسطى ، وهى معرفة واجبة علينا للذين نحن أبناءهم ولا سبيل الى انكار المعرفة الواجبة ، أو التكر لها أو جحودها أو تصغير شأنها فى تكويننا الحاضر والمستقبل .

وربما يقول بعض القائلين أن مقتضيات الحياة الحديثة تتطلب الاستمداد الثقافى من المؤلفات الغربية الحديثة فحسب ، لا من الكتب الشرقية القديمة واشباهها ، مما طال عليها سالف الأمد . وعندى أنه ينبغى على الشرق الأوسط أن يأخذ من قديم الشرق وحديث الغرب

معا ، على قاعدة الاختيار والاقتباس المستنير من المنبعين مع الملاءمة والاعتدال .

ومن البدهى أن الاقتباس من المنبع الشرقى فى معناه احياة كتب التراث قديم فى مختلف العلوم والفنون ، بالنشر السليم ، واستخدامها على نحو ما فعل المستشرقون قبلنا . ومن البدهى كذلك أن القنوع بالاستمداد من المؤلفات الغربية الحديثة ، يجعل البناء الثقافى فى الشرق العربى على أساس طارىء عليه ، وهو أخطر أنواع البناء عند أساتذة علم النفس التربوى والاجتماعى .

محمد مصطفى زيادة

مؤلفات المقرئى الصغرة

لله ساذ الكوة جمال الدين الشلال^١

تقى الدين أحمد بن على المقرئى كبر مؤرخى مصر الاسلامية . وزعيمهم دون منازع ، كان فقيها ومحدثا ، وتولى منصب الحسبة فى القاهرة غير مرة ، ثم فرغ لعلم التاريخ ، واستقر فى بيته يؤلف فيه ، فأنتج انتاجا ضخما خصبا .

ومؤلفات المقرئى نوعان : كتب موسوعية كبرى ، كبرى الأجزاء ، وكتب أو كتيبات صغيرة .

أما كتبه الكبرى : —

فمنها ما عنى فيه بتاريخ العالم ككتاب « الخبر عن البشر » ، أو التاريخ الاسلامى العام ، ككتاب « امتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأحوال والحفدة والمتاع » وكتاب « الدرر المضيئة فى تاريخ الدولة الاسلامية » .

وأكثرها ما عنى فيه بتاريخ مصر الاسلامية ، فقد وضع لنفسه خطة واضحة تهدف للتاريخ لمصر الاسلامية من جميع نواحيها السياسية والعمرانية والبشرية .

ففى تاريخها السياسى وضع كتبا ثلاثة ضخمة : —

(أ) الأول هو « عقد جواهر الأسفاط فى تاريخ مدينة القسطاط » . وأرخ فيه لمصر منذ الفتح العربى الى الفتح الفاطمى .

(ب) والثانى هو « اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الحلفا »
وأرخ فيه لمصر فى العصر الفاطمى .

(ج) والثالث هو « السلوك لمعرفة دول الملوك » وأرخ فيه لمصر
فى العصرين الأيوبرى والملوكى الى قبيل وفاته فى سنة ٨٤٥ هـ .

وفى تاريخها العمرانى وضع موسوعته الكبيرة « المواعظ والاعتبار
بذكر الخطط والآثار » وفيه أرخ للمدن المصرية ومعالمها ومنشآتها
ومعاهدها العلمية ومؤسساتها الدينية والاقتصادية والحربية والعمرانية ،
وضمن حديثه هذا الكثير من المعلومات النادرة القيمة عن مختلف مظاهر
الحضارة ونظم الحكم فى مصر منذ دخلها الاسلام الى منتصف القرن
التاسع الهجرى (١٥ م) .

وفى تاريخها البشرى وضع كتابين كبيرين للترجمة لرجال مصر :

(أ) الأول هو « كتاب المقفى الكبير فى تراجم أهل مصر والوافدين
عليها » وهو كما يتضح من عنوانه مخصص للترجمة للبارزين من أبناء
مصر أو ممن وفدوا عليها أو أقاموا بها خلال العصر الإسلامى ، وكان
يقدر له أن يخرج فى ثمانين مجلدا ، ولكنه توفى قبل أن يتمه ، ولم
تصلنا كل الأجزاء التى أتمها المؤلف ، وانما وصلنا بعضها وضاع البعض
الآخر .

(ب) والثانى هو « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة »
وقد خصصه لتراجم البارزين من معاصريه .

ولهذه الكتب الكبيرة أهمية خاصة ، لأن المقرئى نقل فيها عن
كتب كثيرة أخرى فقدت ولم تصل إلينا نسخ منها ، أو عن كتب أخرى
ما زالت مخطوطة ، وهو الى هذا كله مؤرخ ثقة ثبت ، يمتاز بالدقة
فيما يروى ، والعناية بما يكتب .

أما كتب المقرئى الصغير فهى فيما نرى ذات أهمية خاصة ويمكننا أن نصنفها الى أصناف أربعة : —

(أ) صنف عنى فيه المقرئى بمناقشة بعض مشكلات أو نواحى التاريخ الاسلامى العام : ككتاب النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم « وكتاب « ذكر ما ورد فى بيان الكعبة المعظمة » . « ضوء السارى فى معرفة أخبار تميم الدارى » ... الخ .

(ب) وصنف عنى فيه المقرئى بذكر عرض موجز لتاريخ بعض أطراف العام الاسلامى مما لم يعن به مؤرخون آخرون : ككتاب « الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » وكتاب « الطرف الغريبة من أخبار حضرموت العجبية » (وقد ألف هذين الكتابين أثناء مجاورته فى مكة فى سنتى ٨٣٩ و ٨٤١) .

(ج) وصنف عنى فيه المقرئى بالترجمة المختصرة لمجموعة من الملوك ، ومنه كتاب « تراجم ملوك الغرب » وكتاب « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك » .

(د) وصنف عنى فيه المقرئى بدراسة بعض النواحى العلمية البحتة أو بالتأريخ لبعض النواحى الاجتماعية والاقتصادية فى العالم الاسلامى عامة أو فى مصر الاسلامية خاصة ، ويمثل هذا الصنف كتب كثيرة منها : — كتاب « المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية » وكتاب « شذور العقود فى ذكر النقود » وكتاب « نحل عبر النحل » وكتاب « البيان والاعراب بمن نزل أرض مصر من الأعراب » وكتاب « أغاثة الأمة بكشف الغمة » وكتاب « ازالة التعب والعناء فى معرفة حل العناء » ... الخ .

وهناك ظاهرتان تلفتان النظر عند دراسة مؤلفات المقرئى الصغيرة : أولاهما : أن المقرئى كان عالما بكل ماتحملة كلمة عالم من معنى ،

يجب المعرفة لذاتها ويجد المتعة في البحث والدراسة والاستقصاء ، فهو ينص في مقدمات معظم هذه المؤلفات الصغرى على انه لم يقدم على كتابتها استجابة لطلب أمير أو عظيم وإنما ألفها اشباعا لذاته المتطلعة الى الاستزادة من العلم والمعرفة ، ولمن يريد أن يشاركه هذا النزوع نحو العلم والمعرفة ، أو على حد قوله هو في مقدمة رسالته « المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية » :

وبعد فهذه مقالة وجيزة في ذكر المعادن ، قيدتها تذكرة لى ولمن شاء الله تعالى من عباده « وكرر نفس المعنى في مقدمته لكتاب « البيان والاعراب فيمن نزل أرض مصر من الأعراب » فقال : « وبعد فهذه مقالة وجيزة في ذكر من بأرض مصر من طوائف الأعراب قيدتها لنفسى ولمن شاء الله من أبناء جنسى » .

وثانيتها : أن المقرئى ألف معظم هذه الكتيبات الصغيرة في أخريات حياته — وبعد أن تم نضجه الفكرى واتسعت قراءاته وعمقت معرفته — وبصفة خاصة في سنة ٨٣٩ هـ أثناء مجاورته في مكة ، أو في سنة ٨٤١ هـ بعد عودته الى مصر ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فهو يقول في حرد كتابه « الطرف الغريبة في اخبار حضرموت العجبية » : « وبعد فهذه جملة من أخبار وادى حضرموت ، علقتها بمكة — شرفها الله تعالى — أيام مجاورتى بها في عام ٨٣٩ ، حدثنى بها ثقات من قدم مكة من أهل حضرموت » .

ويقول في مقدمة كتابه « الامام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » : « وبعد فهذه جملة من أخبار الطائفة القائمة بالملة الاسلامية ببلاد الحبشة المجاهدين في سبيل الله من كفر به وصد عن سبيله ، تلقيتها بمكة شرفها الله تعالى ، أيام مجاورتى بها في سنة ٨٣٩ من العارفين بأخبارهم » .

ويبدو أنه جمع مادة هذا الكتيب في تلك السنة ، ولكنه لم ينسق بينها ويخرجها في شكل رسالة الا في سنة ٨٤١ ، فقد قال في نهاية الرسالة : « حرره جامعه ومؤلفه أحمد بن علي المقرئ في ذي القعدة سنة ٨٤١ » .

— ومن الكتب التي ألفها في سنة ٨٤١ كتاب « تجريد التوحيد المفيد » فقد جاء في حرد مخطوطة باريس من هذا الكتاب : « قال مؤلفه — رحمه الله — انه صححه جهد الطاقة ومبلغ القدرة في سنة ٨٤١ » — ومنها كذلك كتابه « المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية » فقد قال في ختامه « وحررته في شوال سنة ٨٤١ » .

— ومنها كتابه « نبذة على عظم قدر أهل البيت » فقد نص في نهايته على انه ألفه في ذي القعدة سنة ٨٤١ » .

— ومنها كتابه « الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك » فقد قال ناسخ مخطوطة الاسكوريال من هذا الكتاب : « كتب من أصل بخط مصنفه ، قال مؤلفه — رحمه الله — حررته جهد القدرة فصح . مؤلفه أحمد بن علي المقرئ ، في ذي القعدة سنة ٨٤١ » .

وكتب الصنف الرابع التي ذكرنا آنفا تعتبر — فيما نرى — أهم كتب المقرئ الصغرى وأكثرها قيمة وأطرفها موضوعا ، لأنه عالج فيها موضوعات قلما عالجها غيره من المؤرخين المسلمين ، وبعد فيها قليلا عن تاريخ الخلفاء والملوك والسلطين والأمراء ، وعننى فيها حيناً بالموضوعات العلمية البحتة ، وحيناً آخر بالشعب ومشكلاته الاجتماعية والاقتصادية ، ونلاحظ كذلك ان المقرئ في هذا الصنف من الكتب لم يكن مؤرخا راوية وحسب ، بل هو مؤرخ مبدع أيضا ، جرؤ فناقش

— أحيانا — الأحداث والموضوعات وأدلى بآرائه الخاصة ، وحل
الاسباب ، وذكر العلاج .

ومعلوماته في هذه الكتيبات وثيقة أكيدة تدل على قراءة واسعة
ومعرفة متبنة ، وفكر واضح منظم ، ومنهج علمي سليم ، وساعده على
ذلك أمور كثيرة منها : —

١ — أنه كان يملك مكتبة كبيرة ضخمة تضم العديد من الكتب في
مختلف أنواع العلم والمعرفة المتداولة في عصره ، والدليل
واضح في الكثرة الكثيرة من المراجع التي أشار في مؤلفاته الى
انه رجع اليها وأخذ عنها .

٢ — أنه ولي وظائف كثيرة مختلفة مكنته من التعرف على دولاب
الحكومة وكيف يدار وعلى مختلف النظم الادارية والمالية وعلى
أحوال الشعب الاجتماعية والاقتصادية ، فقد بدأ حياته الوظيفية
موقعا بديوان الانشاء بالقاهرة ، ثم كان مدرسا وقاضيا وناظرا
للاحباس ، ثم ولي الحسبة غير مرة ، ولم يكن للمحتسب —
كما نعلم — من عمل غير الاشراف على شئون الشعب الاجتماعية
والاقتصادية .

٣ — اشتغاله بعلمى الحديث والتاريخ ، وهما علمان يعتمدان أصلا
على الجرح والتعديل والنقد والتحليل والتثبت من صحة كل
كل قول أو رواية أو حقيقة علمية .

ولعله من المستحسن بعد عرض هذه المبادئ العامة لبيان ما لكتب
المقريزي الصغيرة مجتمعة من قيمة علمية أن تتخير نماذج منها لتحليلها
واعطاء فكرة عن محتوياتها تأكيدا لما قررنا من مبادئ .

وقد اخترنا لتحقيق هذا الغرض أربعة نماذج :

١ — اغاثة الأمة بكشف الغمة :

لهذا الكتاب أهمية خاصة ، لأنه من الكتب العربية القليلة التي تناولت بالبحث ناحية هامة من نواحي التاريخ عليها تتركز عناية المؤرخين المحدثين اليوم ، وهي الناحية الاقتصادية والاجتماعية .

ففى هذا الكتاب يؤرخ المقرئى للغلوات والمجاعات التى أصابت مصر منذ أقدم العصور الى سنة ٨٠٨ هـ ، وهو يذكر فى مقدمته أن السبب الذى دفعه الى تأليف هذا الكتاب هو مجاعة متقطعة حدثت فى زمنه من سنة ٧٩٦ الى ٨٠٨ ، فرأى أن يبين أن « ما بالناس سوى سوء تدبير الزعماء والحكام ، وغفلتهم عن النظر فى مصالح العباد ، لا أنه كما مر من الغلوات وانقضى من السنوات المهلكات » .

وفى الكتاب عرض لطيف للأسباب التى كان أرباب الحكم فى مصر يطبقونها لتخفيف آلام — المجاعات وأمراضها عن الشعب المصرى ، غير انه مما يدعو الى الغرابة انه برغم تتابع المجاعات ، وبرغم أن الكتاب مفرد لتاريخها فى مصر فان المقرئى لم يذكر سوى حادثتين اثنتين يمكن الاستدلان منهما على يقظة الشعب وثورته على ما كان هناك من أسباب اقتصادية لحدوث هذه المجاعات ، ولم يقنع المقرئى فى هذا الكتاب بسرد الاحداث وايراد اخبار المجاعات وحسب ، بل جرؤ فناقش الأسباب التى أدت الى حدوث المجاعة فى عصره وحاول ان يقترح الوسائل لعلاجها ، فالأسباب فى نظره كانت تتخلص فى أمور ثلاثة شرحها شرحا مسهبا وهى : —

— ولاية الوظائف السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة .

— غلاء ايجار الأطيان وزيادة ثقات الحرث والزراعة على مبلغ ما تغله الأرض من محصول .

— رواج القلوس النحاسية — وهى من المحقرات — فى المعاملات

والبعد عن القاعدة السليمة للتعامل النقدي ، وهي قاعدة الذهب والفضة .

ويقول الأستاذ الدكتور / حسين فهمي في الدراسة القيمة التي قدم بها الطبعة الثانية من هذا الكتاب « واشهد اني حين قرأت هذا الكتاب اعجبت به اعجابا شديدا ، فهو يحوى بين دفتيه عرضا لنظريتين من النظريات الاقتصادية الحديثة المعقدة تتصل احدهما بالازمات ودريتها والثانية خاصة بتثبيت النقد وعلاج تدهوره » .

وقد اوضح الدكتور / حسين فهمي في هذه المقدمة كيف ان المقريزى سبق العالم الاقتصادى الانجليزى المشهور جريشام بمائة سنة في شرح النظرية القائلة بأن « النقود الرديئة تطرد النقود الجيدة من التداول » .

وقد استطرذ المقريزى أثناء شرحه فأوضح أثر الاسراف في اصدار الفلوس واستخدامها بعملة رئيسية ، وقسم المجتمع الى طبقات ، وبين أثر التضخم في حالة هذه الطبقات ، موضحا ان أفراد الطبقات ذات الداخل الثابت هم الذين يتأثرون تأثرا واضحا بهذا التضخم .

والكتاب — رغم صغر حجمه — حافل بمعلومات قيمة كثيرة لا تزال توحى بدراسات اجتماعية واقتصادية ، وقد ترجمه أخيرا الى اللغة الفرنسية المؤرخ الفرنسى الكبير جاستون فييت .

٢ - كتاب نحل عبر النحل :

بدأ المقريزى كتابه هذا بالحديث عن النحل من الناحية الحيوانية ، فتكلم عن اليعاسيب ووصفها ، وعن العامل من النحل والبطال ، ثم ذكر اسماء النحل في ادوار نموه المختلفة منذ تخلقه برقة الى أن يصير نحلة ، ثم اسماءه وهو يطير جماعات : كالطرد ، والثول ، والعنقود ،

والخشم ... الخ ثم عرض بعد ذلك لألوانه وأحجامه ، وصفاته الخلقية والخلقية ، مستنبطاً من ذلك كله العظة والعبرة لبنى الإنسان .

وترك المقرئى هذا ليتحدث عن بيوت النحل أو خلاياه ، ما يوجد منها فى الجبل أو فى السهول ، أو فيما يعرش الناس ، مقارناً بين كل نوع ونوع ، ثم ذكر الأسماء اللغوية المختلفة لهذه الخلايا ، وهى كثيرة : كالنحيتة والمعسلة ، والكوارة ، والمبأة ، والوقبة ... الخ .

وفى فصل ثانٍ تحدث عن آفات النحل : كالدبر والخطاطيف ، والضفادع ، والسوس ، والجردان ، وعن مبلغ ما تحدثه كل آفة من هذه بالنحل وعسله وخلاياه من ضرر ، ثم وصف العلاج لهذه الآفات . وعرج بعد هذا على العسل ، فذكر أنواعه وأوصافه المختلفة ، من حيث الطعم والرائحة والكثافة والرقّة ، والصفاء والكدر ، وكثرة الحلاوة وقلتها .. الخ .

ثم تكلم بعد ذلك عن جامع العسل ، أو مشتاره ، وعن الألقاب الكثيرة التى يلقب بها هذا المشتار ، وعن الآلات التى يستعين بها أثناء عمله ، وخاصة فى الخلايا الجبلية .

وتحدث المؤلف بعد ذلك عن النحل ومكانته الاقتصادية فى مصر الإسلامية مورداً من موارد المعاملات السلطانية والجهات الديوانية ، وذكر مقدار ما كانت النحل تغله للدولة من عسل وشمع فى كل سنة .

وعقد المؤلف فصلاً خاصاً تحدث فيه عن الأزهار والأنوار التى يرعاها ويرتشفها النحل ، كاللوز ، والندغ ، والسحاء ، والسدر ، والرمّان ، والجلفار ... الخ ثم وازن بين أصناف العسل الذى ينتجه النحل على تنوع غذائه بكل نوع من هذه الزهور ، وأى هذه الأصناف أحسن أو أحلى ، وأياها أردأ أو أقل حلاوة ، ثم تحدث بعد هذا عن الفوائد الطبية الكثيرة لعسل النحل .

وانتقل من هذا الى الحديث عن الشمع ، وما هو ، وكيف يتكون ، ثم اسهب في ذكر ما ورد في النحل والعسل من آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، مع العناية بأقوال الشراح والرواة المختلفين وختم هذا الفصل بذكر الحكم الفقهي في النحل : أتؤخذ منه الزكاة أو لا تؤخذ ، ويحل للمسلمين أكله كحل الجراد ، أو لا يحل .

وانتهى المقرئ الى الفن الحبيب الى نفسه ، وهو التاريخ ، فنقل في كتابه الحوادث التاريخية التي تتصل بالنحل ومنتجاته — وخاصة الشمع — فقد كان للشمع في مصر الاسلامية مركز اقتصادي هام ، لأنه كان من أهم وسائل الاضاءة — ان لم يكن أهمها — فهو يذكر كم طنا من الشمع استعمل في حفلات زواج أبناء الخلفاء أو السلاطين أو الأمراء ، وكيف كان حجم هذه الشموع وشكلها ولونها ... الخ . ثم يستطرد فيصف هذه الحفلات وصفا شائقا ، وهذا الفصل طريف لأنه يعطينا صورة حية نادرة لبعض نواحي الحياة الاجتماعية في العصر الاسلامي .

ويختم المقرئ كتابه بفصل جميل أورد فيه كثيرا من الشعر الذي قيل في الشمع ، فهو يروي أبياتا لكثير من الشعراء : كالملوفق يوسف ابن الخلال — صاحب ديوان الانشاء في العصر الفاطمي وأبى نصر بن كشاجم ، ومظفر بن محاسن ، وأحمد بن يوسف التيفاشي ، وابن حمديس الصقلي ، وغيرهم كثيرين .

٣ - الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك :

هذا الكتاب يتناول موضوعا طريفا ، فهو يؤرخ لكل من حج من الخلفاء والملوك ، وقد بدأ المؤلف بالتاريخ لحجة الرسول عليه السلام المعروفة بحجة الوداع ، ثم قسم الكتاب قسمين ، أرخ في القسم الأول

لمن حج من الخلفاء مدة خلافته من الراشدين والأمويين والعباسيين ، وأرخ في القسم الثاني لمن حج من الملوك والسلاطين منذ أن انقسمت الخلافة الى دويلات يحكمها ملوك الى عهد السلطان الملك الاشرف شعبان أحد سلاطين المماليك بمصر ، ولم يتقيد المؤلف في اختياره بدولة ما أو ببلدة ما ، بل أنه تتبع الملوك في مختلف البلدان الاسلامية من مصر الى اليمن الى الشام الى بلاد التكرور ، واحصى من حج من ملوكها فأرخ لهم الواحد بعد الآخر .

والكتاب على صغر حجمه — مفعم بالمعلومات القيمة الجديدة وقد جمعت في صعيد واحد عن موضوع واحد هو « الحج » ففي الفصل الأول عن حجة الرسول معلومات مركزة عن بعض شعار الحج كالعمرة ، والقران ، والأفراد ، والتمتع ، والهدى ... الخ .

والفصلان التاليان عن حج من الخلفاء ومن حج من الملوك تتخللهما معلومات كثيرة طريفة عن الاصلاحات المتتالية التي قام بها الخلفاء والملوك في مكة والمدينة ، وأول من قام باصلاح عمر بن الخطاب ، فقد بنى المسجد الحرام ووسع فيه ، واستأذنه أهل المياه في أن يبنوا منازل بين مكة والمدينة ، فأذن لهم ، وشرط عليهم ان ابن السبيل أحق بالظل والماء .

ومن المعلومات الطريفة الجديدة ان طريق الحج من العراق الى مكة كانت تبني فيه للخلفاء في كل منزلة ينزلونها دار ، ويعد لهم فيها سائر ما يحتاج اليه من الستور والفرش والأواني وغير ذلك ، وانهم كانوا يعينون موظفا خاصا للاشراف على هذه المنازل والدور يسمى « متولى المنازل » . وقد ذكر المؤلف ان الخليفة العباسي المهدي أمر ببناء القصور بطريق مكة أوسع من القصور التي بناها السفاح ، وانه أمر باتخاذ المصانع — لخزن الماء — في كل منها ، وتجديد الأميال — أي علامات الطريق — وحفر الركايا — أي الآبار .

ومما يستدعى الالتفات — لطرافته — ان المهدي كان أول خليفة حمل اليه الثلج الى مكة ، وانه أمر لأول مرة ، وفي سنة ست وستين — بأقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن — بغالا وابلا — ولم يكن — كما يقول المقرئى — هناك بريد قبل ذلك .

وبين ثنايا الكتاب تنتشر معلومات قيمة عن كسوة الكعبة ، فالمقرئى يذكر ان الكسوة كانت تعمل من الديباج المذهب ، ويقول « وكانت الكسوة لا تنزع من الكعبة فى كل سنة كما هو العمل الآن — أى فى أيامه — بل تلبس كل سنة كسوة فوق تلك الكسوة ، فلما تكاثر العهد وكثر ذلك خافت السدنة على الأركان أن تنهدم لثقل ما عليها من الكسوة » ، حدث هذا فى عهد الخليفة العباسى المهدي ، فنزع الكسوات القديمة وألبسها كسوته .

ومن المعروف أن كسوة الكعبة منذ عهد عمر بن الخطاب كانت تصنع فى دور الطراز فى تنيس وشطا وتونة ودمياط من مدن مصر ، وقد أضفنا نحن عند نشر هذا الكتاب حاشية طويلة فى إحدى صفحاته لخصنا فيها تاريخ الكسوة صنعت فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فى دار الطراز بالاسكندرية ، وهذا أمر طبيعى فان صناعة النسيج فى دمياط وما حولها تدهورت فى عهد المماليك ، ولكنها ازدهرت فى مدينة الاسكندرية .

والباحث فى الحياة الاجتماعية على عصر المماليك يجد فى هذا الكتاب نصوصا كثيرة هامة ، لعل أطرفها وصف المراكب التى كانت تصحب سلاطين المماليك عند خروجهم للحج والاستعداد الضخمة التى كانت تتخذ لأمداد القافلة بكل ما يحتاج اليه السلطان من مأكول ومشروب ومشوم وملبوس ، يتضح هذا فى وصف المقرئى لموكب الناصر محمد بن قلاوون ، ففيه يقول : « فعمل (كريم الدين الكبير

ناظر الخاص) عدة قدور من فضة ونحاس تحمل على البخاتى ليطنخ فيها ، واحضر الخولة لعمل مياقل وخضروات ورياحين ومشموحات فى احواض خشب لتحمل على الجمال وتسقى طول الطريق ، ويؤخذ منها كل يوم ما يحتاج اليه ، ورتب الأفران وقلائى الجبن وصناع الكماج والسميد وغير ذلك مما يحتاج اليه ... الخ » .

والكتاب أخيرا به معلومات كثيرة دقيقة ومقيدة عن علاقة مصر فى العصور الاسلامية بجيرانها فى آسيا وأفريقيا ، كالحجاز واليمن والشام وبلاد التكرور .

٤ - المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية :

هذا كتاب علمى بحث يبحث فى المعادن ، وهو يدل دلالة واضحة على أن المقرئ لم يكن محدثا ومؤرخا وحسب ، بل على أنه شارك مشاركة فعلية فى الألام بدراسات علمية دقيقة ومتعمقة فى علوم التاريخ الطبيعى من نبات وحيوان ومعادن وما يتصل بها من علوم الفلك والجغرافية ، وأسلوبه فى هذا الكتاب أسلوب علمى دقيق ، فهو بعيد عن المحسنات البديعية ، وهو مركز غاية التركيز بحيث لا تستطيع أن تحذف كلمة من جملة والا فسد المعنى وتغير ، والمعلومات التى أوردها متطورة ومتقدمة اذا قورنت بالعصر الذى عاش فيه وهو القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ، فهو يقول مثلا بكروية الأرض بل هو يقول بأحدث ما يقول به الجغرافيون اليوم فينص على أن شكل الأرض « قريب من الكرة » وعلى أنها متحركة . واذ كان هذا الكتاب لا زال مخطوطا فأنى أوثر أن أنقل هنا بعض فقرات منه فهى أوضح دليل على صدق ما قلت .

قال فى مقدمة الكتاب : « أعلم أن الأرض جسم بسيط ، طبعها بازد

يابس ، وهى متحركة الى الوسط ، وشكلها قريب من الكرة ، والقدر الخارج منها محدث ، وخلقت باردة لأجل الغلظ والتماسك ، اذ لولاهما لما أمكن قرار الحيوان على ظهورها وحدوث المعادن والنبات فى جوفها ، وهى ثلاث طبقات : طبقة قريبة من المركز وهى الأرض الصرفة ، وطبقة طينية انكشف بعضها وأحاط البحر بالبعض الآخر ، والأرض الأفلاك وهى واقعة فى الوسط والهواء والماء يحيطان بها من جميع الجهات ، والانسان فى أى موضع وقف على سطح الأرض تكون رأسه مما الأرض ، وهو يرى من السماء نصفها ، واذا انتقل الى موضع آخر ظهر له من السماء مقدار ما خفى عنه من الجانب الآخر ، ولكل تسعة عشر فرسخا فى الأرض درجة من درجات الفلك والبحر محيط بأكثر وجه الأرض والمكشوف منها قليل ، وهو ثابت عن الماء على هيئة بيضة غاطسة فى الماء وقد خرج من الماء محدبها ، ونيس الأرض منتصبة ولا ملساء ولا مستديرة ، بل كثيرة الارتفاع والانخفاض .. الخ .

ويأتى بعد المقدمة فصل عنوانه « الاجسام المتولدة » يمهّد به المقريزى للكلام عن المعادن ، والاجسام المتولدة عنده « أما نامية أو غير نامية ، والنامية أما أن تكون لها قوة الحس والحركة أو لا ، فالتى لها الحس والحركة هى الحيوان ، والتى لا حس لها ولا حركة فهى النبات ، وغير النامية فهى المعادن » ، وبعد أن يتكلم عن تكوينات كل جسم من هذه الأجسام يفرد فصلا كبيرا للحديث عن « اقسام المعادن » وهى موضوع الكتاب .

ويقول فى مقدمة هذا الفصل : « أعلم ان الأجسام المتولدة من الأبخرة والأدخنة المحتبسة فى الأرض اذا اختلطت على ضروب من الاختلاطات مختلطة فى الكم والكيف كانت أما قوية التركيب أو متطرفة أو غير متطرفة ، والمتطرفة هى الأجساد السبعة التى لها الفلزات وهى : الذهب والفضة ، والنحاس والرصاص والحديد ،

والاسراب ، والخاصين ، وغير المتطرفة اما غاية في اللين أو غاية في الصلابة فالتى في غاية اللين كالزئبق ، والتى في غاية الصلابة كالواقيت ، وهى اما تنحل بالرطوبات وهى الاجسام الملحية كالزاج والشب والنوشادر ، واما لا تنحل وهى الأجسام الدهنية كالزرنىخ والكبريت على اختلاف اختلاطها فى الكم والكيف .. الخ .. الخ » .

وهكذا يستمر المقرئ — بعد هذه التصنيفات الكلية — فى كلامه عن المعادن واحدا بعد الآخر شارحا تكوينه وصفاته ومكان وجوده ، وقيمتها العلمية والمادية والطبية بهذا الاسلوب العلمى الدقيق الرصين ..

جمال الدين الشيال

فطاط المقرىزى بين الأصالة والنقل

للأستاذ محمد عبد الله عثمان

يعتبر تقى الدين المقرىزى الذى نحتفل اليوم بذكرى مولده الستمائة ، من بين المؤرخين المصريين ، اغزهم اتجا ، واهمهم آثارا ، وأجزلهم أسلوبا ، وأصدقهم تعبيرا عن الروح المصرية ، فى مختلف مناحى الحياة والتفكير .

وقف المقرىزى حياته الخصبة على تدوين تاريخ مصر الاسلامية وتدوين أمجادها ومنحها ، فى مشابة تثير الدهشة والاعجاب ، يدفعه الى ذلك حب مضطرم لذلك الوطن الذى نشأ فيه ، وترعرع بين ربوعه ، وشهد خلال حياته طرفا من محنه وأمجادها ، وسحرته معاودة ومغانيه وصروحه وآثاره .

وأشد ما تبدو هذه القاهرة التى طبع كتابات المقرىزى ، فى كتابه « الخطط » . والخطط فى الواقع هى أجل ثمار هذه العاطفة المضطربة ، وما أوحى من مشابة وجلد . وفى الخطط يبلغ المقرىزى ذروة الاستيعاب والافتنان والروعة ، فى وصف الخطط المصرية ، وخطط الفسطاط والقاهرة المعزية ، ونشأة كل منهما ، وأحيائها ، وصروحها ، وتطوراتها الجغرافية والعمرانية ، ومساجدها وقصورها ومعاهدها : وكل ما احتوت من بذخ وبهاء وفن ، ويقرن ذلك فى معظم الأحيان بتاريخ الدول والشخصيات التى قامت فى ظلها هذه الصروح أو أوحى

بأنشائها . ثم هو لا يقف عند النواحي التخطيطية والأثرية والفنية ، ولكن يفيض في النواحي العمرانية والاقتصادية . وبهذه المحتويات يلقي كتاب « الخطط » على تاريخ مصر السياسى والأثرى والاجتماعى والاقتصادى ، فى العصور الوسطى ، أعظم أضواء اجتمعت فى هذا الأثر الخالد .

وقد لبث هذا الأثر الخالد — كتاب الخطط — على كر العصور موضع التقدير والاعجاب . وما يزال الى يومنا من أنفس المصادر فى تاريخ مصر الاسلامية ، ولكن هذا الكتاب الجامع الذى يتوج مجهود المقرئى التاريخى ، قد عرض للانتقاص من أحد أعلام عصره . بل أنكر عليه فضل وضعه وأبتكاره ، ونسب الى النقل والاختلاس . وصاحب هذه التهمة الغريبة هو شمس الدين السخاوى ، نسبها الى المقرئى فى مؤلفاته غير مرة ، أحيانا بطريق مباشر ، وأحيانا بنسبتها الى شيخه الحافظ ابن حجر . والسخاوى من أقطاب التفكير والنقد فى القرن التاسع الهجرى ، بل هو من أعظم النقدة فى تاريخ الأدب العربى . وهو من الناحية النقدية بالنسبة لأدبنا يمكن أن يقارن بسانت بيث بالنسبة للأدب الفرنسى . فقد كان سنت بيث أستاذ عصره فى النقد الأدبى . وكانت حملاته الناقدة تثير من حوله كثيرا من البغض والخصومة . ولكن سوف نرى أن هذه الحملة القاسية التى يوجهها السخاوى الى المقرئى ، وهذه التهمة المشينة التى ينسبها اليه ، أبعد ما يكون عن الحق ، وانها بالعكس نفضة من نقثاته يطبعها التحامل والتناقض ، وتدحضها الحقائق المادية .

يقول السخاوى فى ترجمته للمقرئى فى كتابه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » بعد أن عدد مؤلفاته :

« وكان حسن المذاكرة بالتاريخ ، ولكنه قليل المعرفة بالمتقدمين » .

ولذلك كثر له فيهم وقوع التحريف والسقط . وكانت له معرفة قليلة بالفقه والحديث والنحو ، والاطلاع على أقوال السلف ، والمأم بمذاهب أهل الكتاب ، حتى كان يتردد إليه أفاضلهم للاستفادة منه ، مع حسن الخلق وكرم العهد ، وبثرة التواضع ، وعلو الهمة لمن يقصد .. كل ذلك مع تبجيل الأكابر له ، أما مداراة له وخوفا من فلمه ، أو لحسن مذاكرته .

« وكان كثير الاستحضار للوقائع القديمة في الجاهلية ، وغيرها . وأما الوقائع الإسلامية ، ومعرفة الرجال وأسمائهم والجرح والتعديل ، والمراتب والسير ، وغير ذلك من أسرار التاريخ ومحاسنه ، فغير ماهر فيه » .

هكذا يتردد السخاوى في ترجمته للمقريزى بين المديح والذم ، وبين التقدير والانتقاص . على أنه لا يقف عند هذا التعميم ، بل يذهب إلى صوغ التهمة المعينة فيقول في سياق حديثه :

« وأقام ببلده (أى المقريزى) عاكفا على الاشتغال بالتاريخ ، حتى اشتهر ذكره ، وبعده فيه صيته ، وصارت له فيه جملة تصانيف كالخطط للقاهرة ، وهو مفيد لكونه ظفر بمسودة الأوحدى ، فأخذها وزادها زوائد غير طائلة » .

ويعود السخاوى فيكرر هذه التهمة في كتاب وضعه في أواخر حياته سنة ٨٩٧ هـ بمكة وهو « الاعلان بالتويخ لمن ذم أهل التواريخ » فيقول :

« وكذا جمع عططها (أى مصر القاهرة) المقريزى ، وهو مفيد . قال لنا شيخنا انه ظفر به مسودة لجاره الشهاب أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ، بل كان بيض بعضه ، فأخذها وزاد عليها زيادات ونسبها لنفسه » .

والشهاب الأوحدي هذا الذي نسب الى المقرئى اختلاس أثره ، هو من كتاب القرن الثامن . ولد سنة ٧٦١ هـ وتوفى سنة ٨١١ هـ وذكره السيوطى فى « حسن المحاضرة » ضمن مؤرخى مصر ، وقال . انه « كان لهجا بالتاريخ ، وألف كتابا كبيرا فى خطط مصر والقاهرة . وكان مقرئاً أديباً » .

وترجم له السخاوى فى « الضوء اللامع » فقال : « انه برع فى القرآن والأدب . وجمع مجاميع . واعتنى بالتاريخ ، وكان لهجا به ، وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة تعب فيها وأجاد ، وبيض بعضها ، فبيضها التقي المقرئى ، ونسبها لنفسه مع زيادات .. وفى ترجمته فى عقود المقرئى فوائد ، واعترف باتتفاهه بمسوداته فى الخطط وأنه ناوله ديوان شعره » .

وهكذا ينسب السخاوى الى المقرئى تهمة اختلاس « الخطط » . أينما سنحت له فرصة الكتابة وأينما جاء ذكر الخطط .

ولنلاحظ أولاً أن السخاوى يذكر حسبما تقدم ، أنه تلقى هذه التهمة الخطيرة التى ينسبها الى المقرئى عن شيخه . وشيخ السخاوى ، المشار اليه هنا هو الحافظ ابن حجر . وكثيراً ما يستتر السخاوى فى حملاته القاذفة بشيخه . وقد كان هذا شأنه فى حملته اللاذعة على المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون .

ويجب أولاً لتمحيص هذه التهمة ، أن نستعرض المصادر التى اعتمد عليها المقرئى فى كتابه « خططه » لأنه لم ينس أن يشير الى هذه المصادر فى مقدمته حيث يقول :

« وأما أى أنحاء التعاليم التى قصدت فى هذا الكتاب ، فإنى سلكت فيه ثلاثة أنحاء ، وهى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم .

والرواية عن أدركت من شيخه العلم وجلة الناس . والمشاهدة لما
عاينته ورأيته .

فأما النقل من دواوين العلماء التي صنفوها في أنواع العلوم ،
فانى أعزو كل نقل الى الكتاب الذى نقلت منه ، لأخلص من عهده ،
وأبرأ من جريرته ، فكثير ممن ضمنى وایاه العصر واشتمل علينا المصر ،
صار لقله اشرافه على العلوم ، وقصور بابه فى معرفة علوم التاريخ ،
وجهل مقالات الناس ، يهجم بالأفكار على ما لا يعرفه . ولو أنصف
لعلم أن العجز من قبله . وليس ما تضمنه هذا الكتاب ، من العلم
الذى يقطع عليه ، ولا يحتاج فى الشريعة اليه . وحسب العالم أن
يعلم ما قبل ذلك ويقف عليه . وأما الرواية عن أدركت من الجلة
والشمايخ ، فانى فى الغالب والأكثر ، أصرح باسم من حدثنى ، الا أن
لا يحتاج الى تعيينه أو أكون نسيت ، وقل ما يتفق مثل ذلك . وأما
ما شاهدته فانى أرجو أن أكون ، والله الحمد ، غير متهم ولا ظنين .

ثم يتبع المقرئ ذلك بكلمة عن كتاب « الخطط » يشير فيها الى
جهود الكندى ، والقضاعى ، وابن بركات النحوى ، والجوانى ، وابن
عبد الظاهر ، وابن المتوج ، ويذكر أن ابن المتوج كان آخر من كتب
قبله عن الخطط ، وأنه يصل فى كتابه الى ذكر أحوال مصر وخططها ،
الى أعوام بضع وعشرين وسبعمائة . على أن المقرئ لا يقف عند
هذا التعميم فى ذكر مصادره ، بل يعود فى سياق كتابه فيذكرها بأدق
تشخيص وأوضحه ، فلا يكاد ينقل رواية أو واقعة أو وصف الا أسنده
الى مصدره ومؤلفه ، فأما أخبار فتوح مصر وتاريخها قبل الاسلام ،
فيرجع فى معظمها الى ابن عبد الحكم ، وابن يونس ، والمسعودى ،
وابن وصيف شاه : ويرجع فى أخبار الفسطاط الأولى الى الكندى
وابن زولاق . وفى وصف النيل وغيره من الموضوعات الجغرافية الى
المسعودى . وفى عصر الدولة الفاطمية ، وهو من أبدع أقسام الخطط ،

يرجع المقرئى بالأخص الى ابن زولاق ، والمسيحي وابن المأمون ، والجوائى وقد عاشوا جميعا فى العصر الفاطمى ، وكتبوا عن مشاهد ومعرفة وثيقة . وفيما يلى ذلك من أخبار مصر والقاهرة ، يرجع المقرئى الى القاضى الفاضل ، وابن عبد الظاهر ثم ابن المتوج . وهكذا يستقى المقرئى مادته تباعا من سلسلة متصلة من المصادر ، تبدأ بابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ وتنتهى بابن المتوج المتوفى فى سنة ٧٣٠ هـ مسندا كل اقتباس الى مؤلفه .

على أنه اذا كان من الصعب أن نجد فى هذه الأقسام المسندة الى مصادرها الوثيقة ، أثرا أو لمحة مما يؤيد اتهام السخاوى لمؤلف الخطط ، فإنه يصعب علينا أن نجد ما يؤيد هذا الاتهام فى بقية الخطط ، وهو ما تعلق بأخبار مصر القاهرة خلال القرن الثامن وأوائل القرن التاسع ، أو بعبارة أخرى ، فى العصر الذى أدرك المقرئى شيوخه ، ثم عاش فيه . والمقرئى صريح فى أنه اعتمد على من أدرك من « شيخه العلم وجلة الناس » . وأما العصر الذى عاش فيه المقرئى ، والذى يمتد من وائل القرن الثامن الى أواسط القرن التاسع فإنه يشغل حيزا كبيرا فى الخطط ، وقد عاصر المقرئى من ملوك مصر عشرة متعاقدين ، وأدرك مرحلتين كبيرتين فى تطور مصر القاهرة ، والمجتمع المصرى : الأولى فى أواخر القرن الثامن حيث كانت مصر القاهرة ، بعد ما أصابها من وباء وعفاء . ترتدى ثوبا جديدا من الحياة . والثانية بعد المحن التى توالى عليها بين سنتى ٨٠٦ و ٨١٢ من وباء وغلاء وشرق ، حيث عادت ثانية تسترد عمرانها وبهاءها . وقد أفاض المقرئى فى أخبار هذين العصرين وأحوالهما وآثارهما . وكان المقرئى بحكم الوظائف التى تولاهما وخطوته لدى بعض الملوك الذين عاصروهم ، متمكنا من سبل البحث والتحري والاستطلاع والمعاينة . ونفس الوقائع المادية هنا تهزم تهمة السخاوى من أساسها .

ذلك أن الشهاب الأوحدي الذي نسب المقرئزى الى اختلاس أثره قد توفي كما رأينا ، في أوائل سنة ٨١١ هـ . وقد بدأ المقرئزى بكتابة « خطه » حسبما يبدو من بعض اشاراته بين سنتي ٨٢٠ و ٨٢٥ هـ واستمر في كتابتها حتى سنة ٨٤٣ هـ ، أعنى حتى قبل وفاته بنحو عامين . فليس من الممكن عقلا أن يكون المقرئزى قد نقل عن الأوحدي شيئا يتعلق بأحوال هذه الفترة ، التي توفي قبلها ولم يدرك شيئا منها . وما كتبه المقرئزى عن خطط مصر والقاهرة ، منذ أوائل القرن الثامن الى ما قبل وفاته ، يشغل من مؤلفه أكثر من النصف ، فاذا أضفنا الى ذلك أن المقرئزى يقتبس من أسلافه كتاب الخط وغيرهم ، بطريق الاسناد شذورا تعد بالمئات ، كان ما تبقى مما يمكن أن يكون موضع الاتهام ، جزءا يسيرا جدا ، يصعب علينا أن نعتقد ، أن المقرئزى وهو امام عصره في التاريخ والرواية ، كان بحاجة الى اختلاسه ، وخصوصا وقد استعرض تاريخ مصر من قبل ، في عدة مؤلفات جلية تشهد بفائق قدرته وبراعته .

وقد رأينا أن السخاوى يرجع الرواية في اتهام المقرئزى الى شيخه الحافظ ابن حجر في كتابه « الاعلان بالتوبيخ » وان كان يوردها من عنده في « الضوء اللامع » ولكن اليك ما يقوله ابن حجر عن المقرئزى وعن مجهوده التاريخي وهو مما أورده السخاوى في ترجمته أيضا :

« وقد ذكره شيخنا في القسم الأخير من معجمه الذي وقف صاحب الترجمة عليه بقوله : وله (أى المقرئزى) النظم الفائق والنثر العابق ، والتصانيف الباهرة ، خصوصا في تاريخ القاهرة ، فانه أحيا معالمها وأوضح مجاهلها ، وجدد مآثرها ، وترجم أعيانها » .

ويذكر ابن حجر أيضا في ديباجة كتابه « رفع الاصر عن قضاة مصر » المقرئزى ضمن مصادره ، ويصفه بقوله : « رفيقى الامام الأوحد المطلع تقى الدين المقرئزى .. » وهذا التقدير الواضح من

جانب الحافظ ابن حجر للمقريزي وجهوده التاريخية ، يجعلنا نقف
ازاء رجوع السخاوى فى اتهام المقريزي الى شيخه ابن حجر موقف
التريث والتحفظ .

والواقع أن مهاجمة السخاوى لأكابر عصره ، وانتقاصه لأقدارهم،
ونقده لجهودهم ، لم تقف عند المقريزي ولم تقتصر عليه ، فتراه فى
الضوء اللامع يهاجم طائفة كبيرة من أعلام هذا العصر ومؤرخيه ، بل
لم ينج ابن خلدون نفسه من لومه وتعرضه .

وقد كان السخاوى مثل سنت يثى يثير من حوله بحملاته الأدبية
والنقدية اللاذعة بينه وبين معاصريه خصومات مضطربة ، وقد نشبت
بينه وبين عدد من زملائه الكتاب والأدباء معارك قلمية ملتهبة .
واشتهرت من هذه المعارك بالأخص ، تلك التى نشبت بينه وبين
البقاعى ، ثم تلك التى نشبت بينه وبين السيوطى . واشتهرت تلك
المعركة الأخيرة بالأخص فى أوساط العصر بما تخللها من حملات لاذعة
ومهاترات شخصية مؤلمة بين هذين الكتاتين والحافظين الكبيرين .
ولو كانت المبارزة من التقاليد الذائعة فى المجتمع المصرى فى ذلك
العصر ، كما كانت ذائعة فى فرنسا ، لنشبت بين السخاوى وبين
خصومه أكثر من مبارزة دامية . وعلى أى حال فقد كان لهذه الحملات
التي شهرها السخاوى على خصومه ، وشهرها خصومه عليه أبعد
صدى فى أواخر القرن التاسع الهجرى .

ولم يلق هذا الاتهام الذى يوجه السخاوى الى المقريزي ، كبير
اهتمام فى دوائر البحث الحديث . غير أن الأستاذ بروكلمان ، قد أشار
إليه فى ترجمته للمقريزي فى دائرة المعارف الإسلامية ، حيث يصف
« الخطط » بأنها أهم آثار المقريزي . ثم يقول « ولكن الظاهر أنه

نقل ما لم ينسب النقل فيه ، عن كتاب للأوحدى ظفر به على قول السخاوى ، وهو قول حسن التأيد . ويعتقد المستشرق جست من جهة أخرى أن المقرئى ، قد نقل فى « خطه » شذورا من الأوحدى دون الاسناد اليه . على أن الأستاذ بروكلمان لم يقدم دليلا لتأيد رأيه ، وقلما يشاركه فيه أحد ممن كتبوا عن المقرئى ومجهوده . وبالعكس فإن البحث الحديث يكبر مجهود المقرئى ويحله المقام الأول فى تراث التاريخ الإسلامى .

بقى فرض واحد يمكن الأخذ به ، وهو أن المقرئى ربما انتفع ضمن مصادره بمجهود الأوحدى وهو ما يشير اليه السخاوى حيث يقول فى ترجمته للأوحدى « وفى ترجمته فى عقود المقرئى فوائد . واعترف (أى المقرئى) بانتفاعه بمسوداته فى « الخطط » . هذا إذا سلمنا بصحة نسبة هذا الاعتراف للمقرئى لأنه لم يصل إلينا من عقود المقرئى — أى دور العقود المفيدة — سوى قطعة ضئيلة . وعلى أى حال فإن المقرئى يشير الى الأوحدى كمصدر من مصادره ولكن فى موطن واحد فقط من الخطط ، فهو يقول لنا ما يأتى فى خاتمة كلامه عن الجامع العتيق أو جامع عمرو : وأخبرنى المقرئ الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن الحسن الأوحدى ، قال أخبرنى المؤرخ ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن بن الفرات . قال أخبرنى العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الصائغ الحنفى أن أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء الكائن فى سنة تسع وأربعين وسبعمائة بضعا وأربعين حلقة لا قراء العلم لا تكاد تبرح منه . هذا واعتراف المقرئى فى عقود بالافادة من الأوحدى ، هو فى رأينا مما يقوى الريبة فى اتهام السخاوى لأن هذا الاعتراف ، ان صح ، فانما يشهد لصاحبه بالأمانة والصراحة . وشتان ما بين الاختلاس والانتفاع .

ومن جهة أخرى فإن ما فعل المقریزی قد انتفع به من «مسودات»
الأوحدی لا يعدو الیسیر التافه بالنسبة لمجموع الخطط . فقد رأینا
فی استعراض مصادر المقریزی ، أن ما کتبه عن خطط عصره ،
وما اقتبسه بطریق الاسناد یتغرق معظم مجهوده فی الخطط ، وأن
الباقی المرسل ، مما لا نسبة فیہ یشغل فیها قسما صغیرا جدا . ومع
ذلك ففی وسعنا أن نتعرف فی هذا القسم أيضا علی کثیر من المصادر
التي نقل عنها المقریزی بطریق التلخیص والاقتباس ، ومعظمها یرجع
إلی جهود ابن عبد الحکم والکندی وابن زولاق .

والخلاصة أن هذا الاتهام الذی یلح السخاوی فی نسبه لمؤرخ
الخطط لا یشیر فی نظرنا ريبة من الريب فی عظمة المجهود التاريخي القذ
الذی تقدمه الینا « الخطط » وفی طراقة وروعة .

ان السخاوی کاتب ومحدث ومؤرخ بارع ، ونقادة لاذع ، قوی
البيان والحجة . ولكن التحامل ، یشوب هنا نقده . والظواهر والأدلة
تنهض کلها لتهدم زعمه .

محمد عبد الله عنان

العمارة والصناعة في خطط المقرئى

من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

للأستاذ حسن عبدالوهاب

كان لنشأة المقرئى فى قلب القاهرة الفاطمية أثر كبير فى توجيهه الى محبة التاريخ والآثار ، فقد ولد وشب وترعرع واستفاد وأفاد فى داره بحارة برجوان . ذلك الحى الزاخر بروائع العمارة الاسلامية . والذكريات التاريخية .

وهو فى مقدمة كتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » يشير الى ذلك .

وكان لتولىه وظيفة الحسبة بالقاهرة غير مرة ، أثره فى تنمية توجيهه وصقله عند وضع تلك الموسوعة واجتلاء محاسن الآثار والوقوف على دقائقها ، ولا عجب فان اختصاص المحتسب يدخل فيه الاشراف على المساجد وتعميرها . كما يدخل فيه الاشراف على مختلف الصناعات ومراقبة تنفيذها بالدقة ، ومنع الغش فيها . ومراقبة تنفيذ العماير ، ومنع الغش فى موادها . كل ذلك بمساعدة المتخصصين الأمناء فى تلك الفنون .

وان ما كتبه عن العماير الاسلامية والقبطية بمصر والقاهرة بعد مشاهدتها والاطلاع على مراجعها ووثائقها . وقراءة نصوصها ، كان له الفضل الأول على جميع المشتغلين بدراسة العمارة الاسلامية ، فهو

منهلم العذب الصافي : فقد أحصى في خطه الجوامع والمساجد مع التعريب بالفرق بينهما . كما أحصى المدارس . ومنى نشأت والفرق بين المدرسة والمسجد في التفاصيل والتصميم . والخواتم . ومتى نشأت بالقاهرة . وما احتوت عليه من ايوانات وخلو ، والبيمارستات ورسالتها الانسانية والعلمية . والربط . والمشاهد ، والزوايا هذا عدا الاسيلة والكتاتيب والحمامات ، والقناطر والجسور وأحواض شرب الدواب ، ومقاييس النيل ، والأسوار والقلاع . وأخيرا الأديرة والكنائس . وذلك منذ فتح العرب لمصر الى سنة ٨٤٣ هـ أى قبل وفاته بسنتين ١٤٣٩ م .

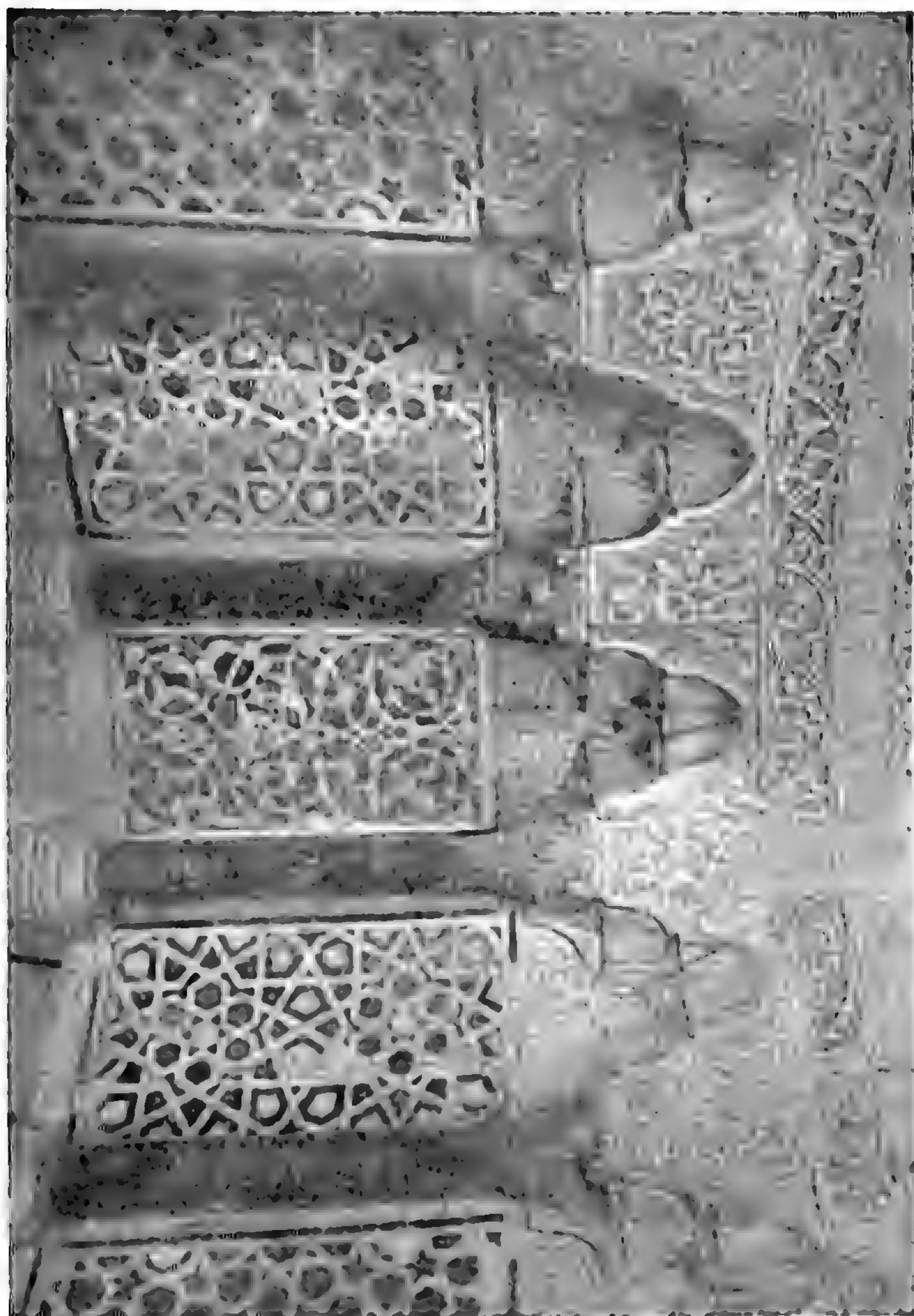
لم يقتصر اهتمامه على المنشآت الخيرية والثقافية فحسب . بل تناول المنشآت المدنية والتجارية . فقد أفاض في وصف القصور الفاطمية وتفاصيلها المعمارية من بناء بالحجر ، الى نوافير الرخام ، الى وصف القاعات الحافلة بالزخرف ، والمشحونة بالآثاث الفاخر ، كما أفاض في وصف خزائن القصور وما احتوت عليه من جواهر وأمتعة وخيام وأسلحة وملابس . افاضته في تدوين حضارة تلك الدولة الزاهرة . وكذلك تناول ذكر بعض الآثار المصرية مثل (١) بربا اخميم وأثار الفيوم ومنار الاسكندرية وعمود السوارى والمندرة والمسلات وعين شمس . وهيكل الشمس ومدينة شنتريه والواحات الداخلة والخارجة وما وجد منها في بلدان أعالي الصعيد وعجائب مصر ومنها الهرمان وأبى الهول وعجائب الاسكندرية . ومن طريف ما ذكره أن ذى النون المصرى الإخيمى كان يقرأ النصوص المكتوبة على الآثار المصرية كما عقد فصلا عن الحفريات للبحث عن اللقايا والكنوز .

(١) ص ٢٣ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٤٠ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ج ١ المواظ والاعتبار طبع بولاق
وهى الطبعة التى اعتمدت عليها فى هذا البحث .



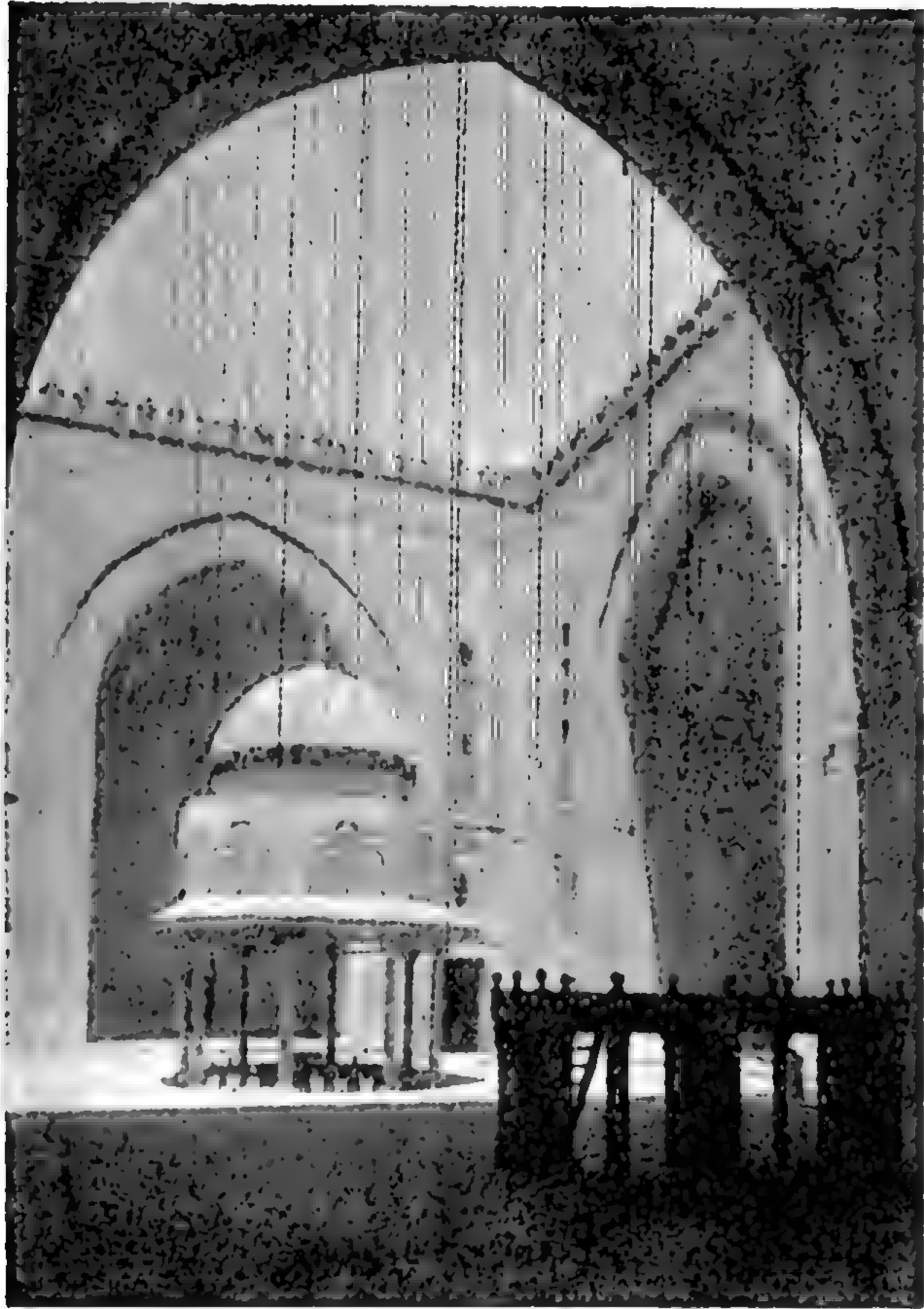
محراب المكتبة الطبرسية بالجامع الأزهر

تفاصيل من محراب المدرسة الطبرسية

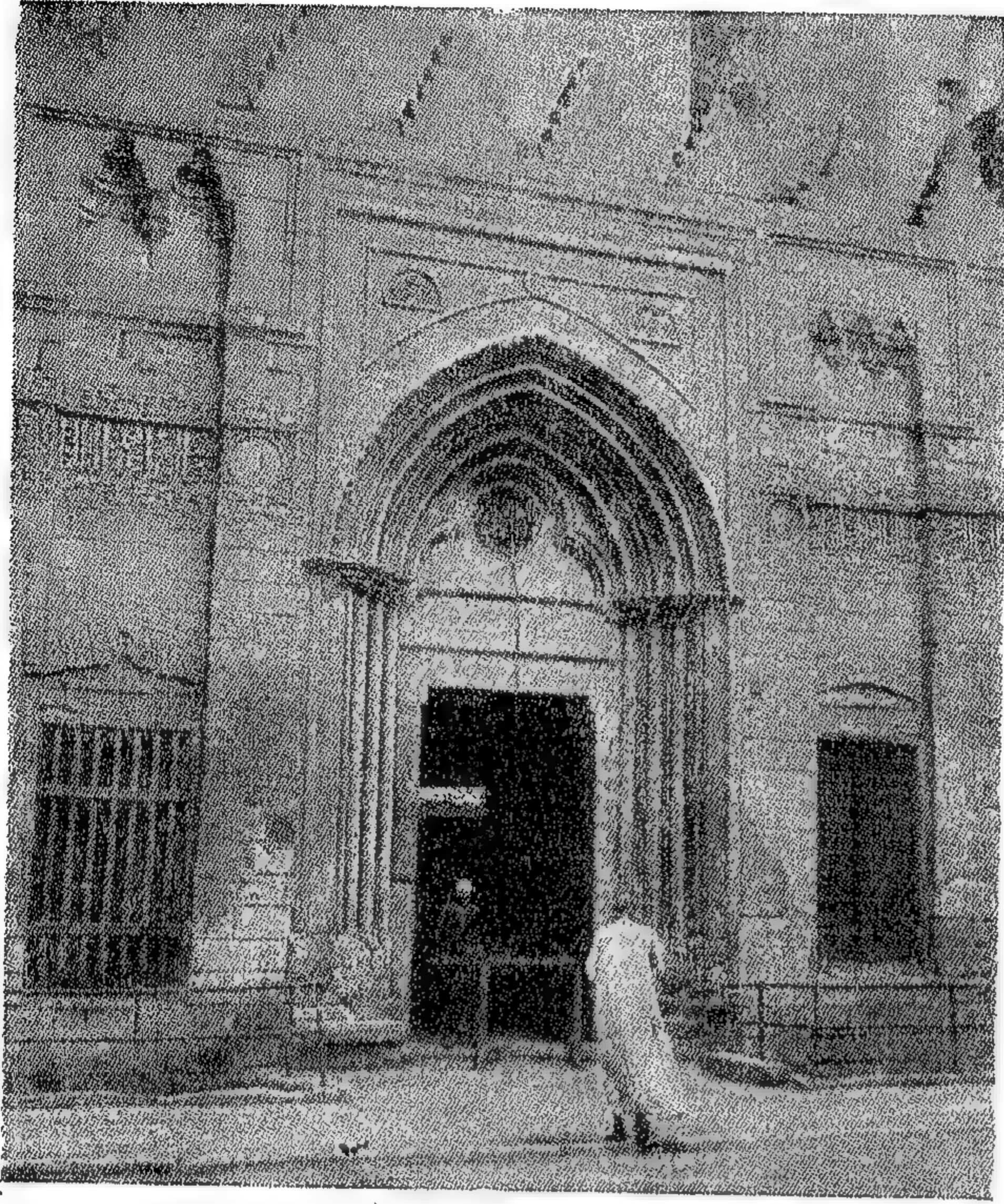




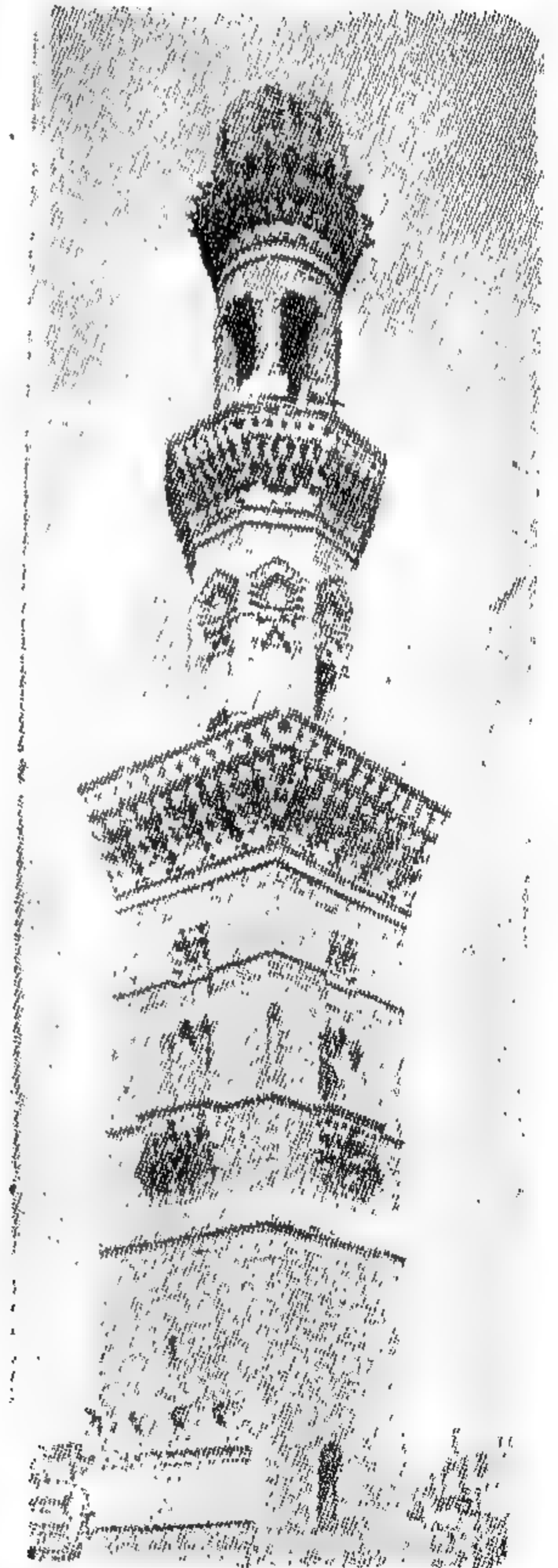
بخارية من وزارة مدرسة الأمير صرغتمش



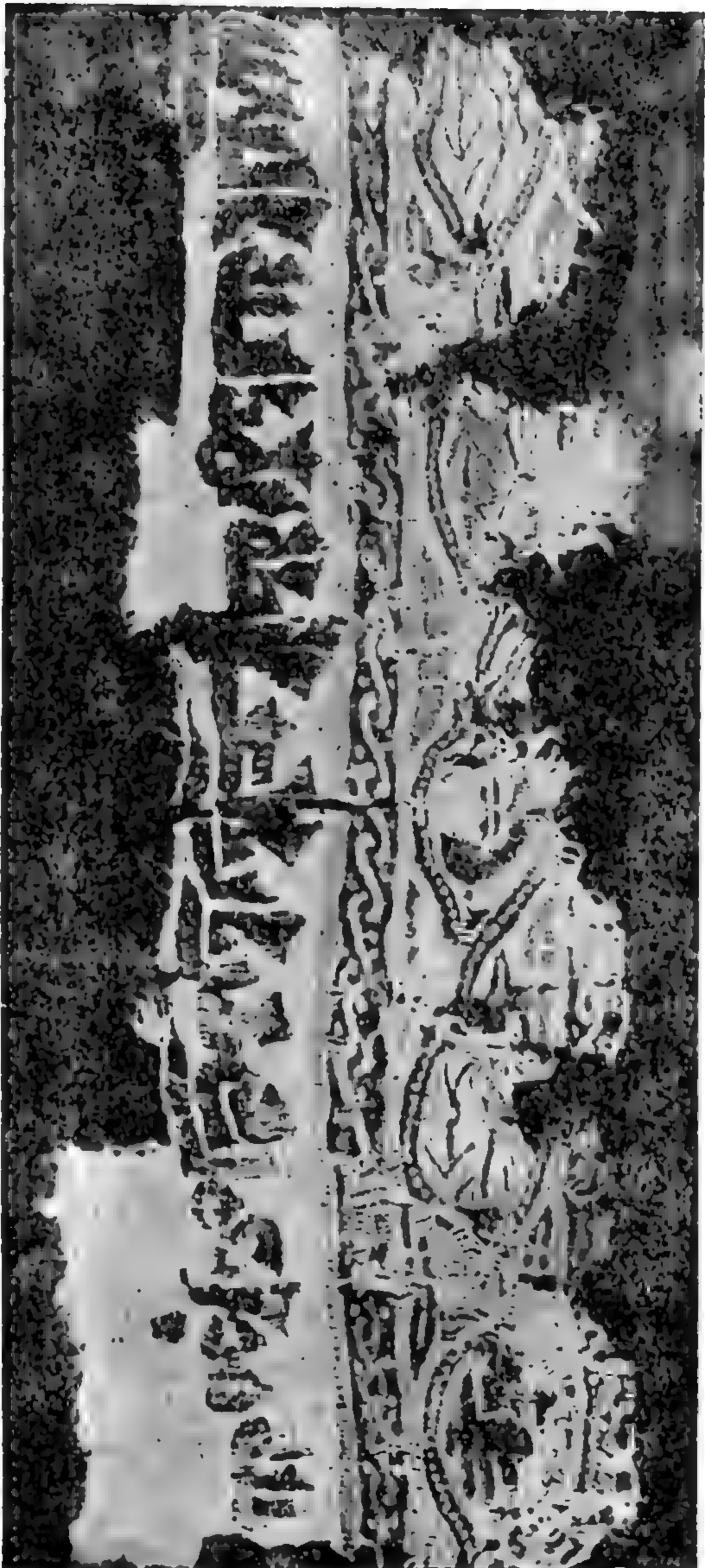
داخل مدرسة السلطان حسن



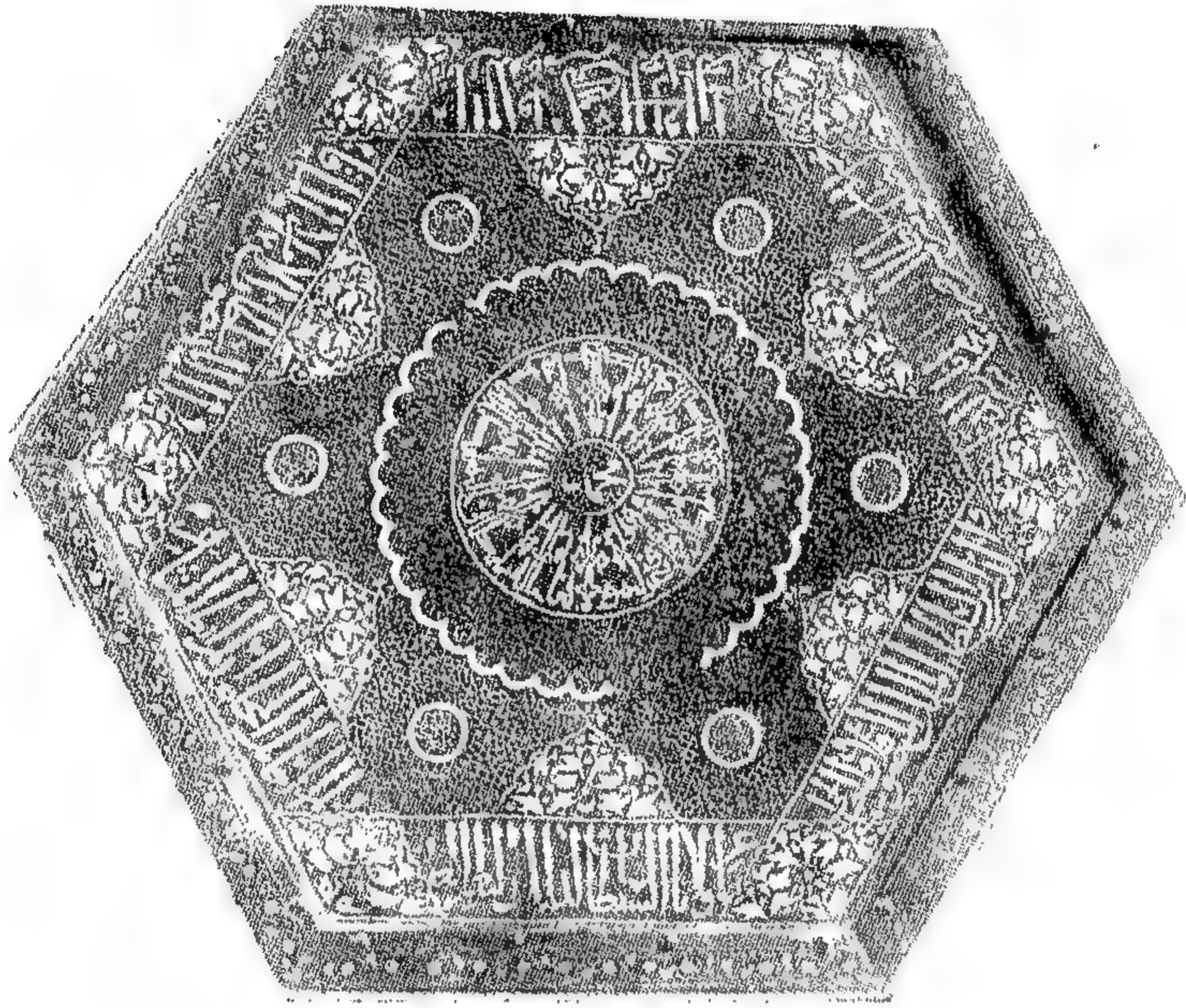
الباب الرخامى لندسة الناصر محمد بن قلاوون
بالتحاسين المنقول من كنيسة بعكا



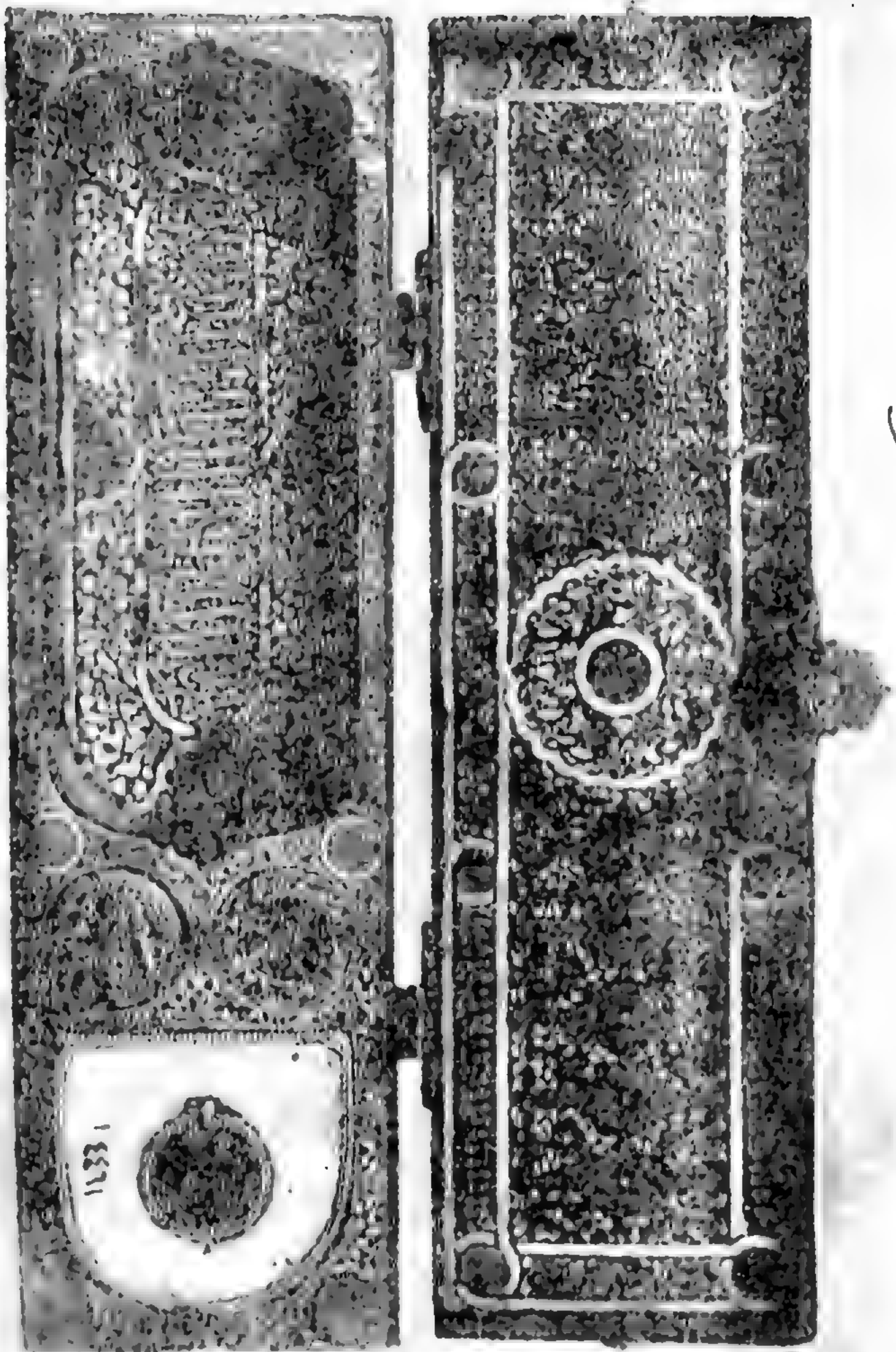
منارة خانقاه الامير قوصون التى بناها البناء التبريزى



قطعة نسيج من كان مرسوم بجزئها المطوى رأس انسان داخل جامات مكرنة بالوان مختلفة ومكتوب عليها
 «مما عمل في طراز الدامة بمدينة البهتس»
 متحف الفن الاسلامي / القرن الرابع الهجري / المائت الميلادي



قرص كرسى من النحاس المخرم والمكفت بالفضة باسم
السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٨ هـ
سنة ١٣٢٨ م . (متحف الفن الاسلامى)



مقبرة ومقلبة من النحاس بالذهب والفضة باسم الملك المنصور محمد «القرن الرابع عشر الميلادي»
متحف الفن الاسلامي

وكذلك ذكر الدور والقصور . والرباع والخانات والقياسر
والفنادق والأسواق وما احتوت عليه من سلع وصناعات .

وهو فيما كتبه اعتمد على مشاهداته . ولذلك نراه يصف العمائر
بعين خيرة مركزا نظره على دقائقها مشيدا بها .

وعلى سبيل المثال : أذكر ما جاء في وصفه للمدرسة الطبرسية
بالأزهر سنة ٧٠٩ هـ ١٣٠٩ م .. « وتأتق في رخامها وتذهب
سقفها .. بحيث لم يقدر أحد على محاكاة ما فيها من صناعة الرخام » .

والمطلع على المحراب الباقي من تلك المدرسة ، يشعر بدقة وصف
المقريزي . لأن هذا المحراب رغم جماله ودقة صناعته ، انفرد بتلييس
أجزاء الرخام برسوماتها وألوانها في ألواح الرخام البيضاء بدل
تجميعها . هذا عدا دقة الحفر في الرخام ، والفسيفساء المذهبة
بتواشيح المحراب .

وفي وصفه لمدرسة الأمير صرغتمش سنة ٧٥٧ هـ ١٣٥٧ م ، يشيد
بدقة صناعة الرخام (١) فيها مستشهدا ما أنشده الشاعر شمس الدين
ابن الصانع .

ليتك بان فتحسن ما بنيت به لأخراك في دنياك من حسن بنيان
به يزدهى الترخيم بهجة فله من زهر والله من باني

والحقيقة أن دقة الحفر في ألواح الرخام بوزرة هذا الجامع وما
احتوت عليه من زهور ورسوم لا نظير لها في أثر آخر .

وأشاد بجامع القلعة الذي أنشأه الناصر محمد بن قلاوون سنة

(١) ص ٢٠٤ ج ٢. المواعظ والاعتبار ..

٧٣٥ هـ ١٣٣٥ م وبدقة صناعة الرخام الفاخر الملون في وزارته ومحرابه (١) .

ومن يشاهد بقايا الوزرة وما كانت عليه من دقة وتطعيم بالصدف يحس بدقته وحسن تعبيره .

هذا قليل من كثير من أطنابه في دقة صناعته الرخام ، ولا عجب فإن صناعة الرخام في دولتي الممالك لا نظير لها .

وتأخذ عينة في الشواذ المنفردة بها بعض المساجد ، مثل المنابر الرخامية فيصف جامع الخطيرى .. أنه تأتق في رخامه ، وعمل له منبرا من رخام غاية في الحسن ، ويشير أيضا الى المنبر الرخامى بمدرسة السلطان حسن . ويصفه « بأنه لا نظير له » .

وهو على حق ، لأن الشائع في منابر مصر أن تكون من الخشب ، والمنابر الرخامية نادرة ومعدودة . وبقايا منبر الخطيرى المودعة في متحف الفن الاسلامى تؤيد أهميته ومثله منبر السلطان حسن .

ومن أوصافه الدقيقة ، عرفنا استعمال الحديد الزخرفى في العمارة الاسلامية منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، فقد استعمله الناصر محمد ابن قلاوون في مسجده بالقلعة (٢) وفي باب الايوان بالقلعة ، الذى وصفه « بأنه مسبوكا من (٣) حديد بصناعة بدیعة محرمة » ووضع في صدره سرير الملك المطعم بالعاج والأبنوس .

ومن وصفه لجامع القرافة الذى أنشأته السيدة تغريد أم العزيز بالله سنة ٣٦٦ هـ ٩٧٦ م المعروف بجامع الأولياء ، نقب على تذوقه لفنون العمارة ومصطلحاتها الفنية . فيشير الى ما به الكبير المصنف

(١ ، ٢) ص ٣٥٠ ج ٢ المواظ .

(٣) ص ٢٠٦ ج ٢ المواظ

بالحدية . والى منارته العالية فوقه . والى أبوابه المطوية . وقناطره
المحمولة على العمدة ووصفها بأنها مكندجة مزوقة باللازورد والزنجفر .
والسقوف ملونة مزوقة . مع ذكره للمفرقات والزخارف التي زوى
فيها الظل والنور . ومن وصفه هذا وقفنا على ما كانت عليه تفاصيل
الأزهر قبل ضياعها لأن بنى على مثاله .

وهو بجانب هذا الوصف يتحفنا بأسماء الصناع الذين أبدعوا في
نقوشه ، وهم بنو المعلم شيوخ الكتامي ، والنازوك والبصريين ، كما
أتحفنا باسم كتاب نادر في التصوير : « ضوء النبراس وأنس الجلاس
في أخبار المزوقين (١) من الناس » .

وهو في تعبيراته يفصل بين الرخام الدقيق والفسيفساء ، فيصف
دور الحريم بالقصر الأبلق (٢) بالقلعة « وانها كانت مؤزرة بالرخام
والفسيفساء المشجرة المذهبة » : وله مقارنات دقيقة فيصف الباب
النحاسي لقصر آفوش الرومي بأنه بديع الصنعة يشبه باب اليمارستان
المنصوري (٣) .

ومن شدة إعجابه بجامع السلطان حسن وصفه « بأنه لا يعرف في
بلاد الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكي هذا الجامع ، مع اشارته
الى مصطلحاته المعمارية .

وبلغ من عنايته بدولة المماليك البحرية ، احصاؤه لما أنشئ فيها
من مساجد ومدارس وخوانق وقصور ما بقى منها وما اندثر ، مع
اشاراته الى ديوان (٤) العماير الذي أنشأه الناصر محمد بن قلاوون .
وهو في وصفه للعمائر يتطرق الى نشأة التفاصيل المعمارية . من منبر

(١) ص ٣١٨ ج ٢ . المواعظ الاعتبار .

(٢) ٢١٠ ج ٢ المواعظ .

(٣) ص ٥ ج ٢ . المواعظ ١٠

(٤) ص ٧١ ج ٥ المواعظ .

ومقصورة ، ومنارة ، ومحراب . كما يتطرق الى ذكر ما يعثر عليه من
أسماء المهندسين والصناع وشادى العماثر . ومشيرا الى الرسومات
الهندسية التى كانت تعمل للعماثر قبل تنفيذها . والى عمل المقايسات
الابتدائية والختامية . فقد رسم مهندس الجامع الطولونى الذى عثر
عنه النصرانى .

مشروع الجامع على رق وعرضه على أحمد بن طولون (١)
واتحفنا باسم مهندس آخر « وهو صالح بن نافع (٢) » الذى عهد اليه
الاخشيد بوضع مشروع تخطيط بستان المختار وقصر له بجزيرة
الروضة — فصوره وقدمه اليه فاستحسنه . ثم سأل عن مبلغ مقايسته
فأخبره أن يبلغ ثلاثين ألف دينار . فطلب تخفيض المبلغ واذن بالتنفيذ .
وكذلك أخبرنا أن لما اخترقت فوارة الجامع الطولونى أمر العزيز بالله
بعمل فوارة أخرى تولى عمارتها — ابن الرومية وابن البنا (٣) . وان
بنائى أبواب النصر وزويله والفتوح ثلاثة أخوة قدموا من الرها .
وعرفنا أيضا بكبير المهندسين فى عصر الناصر محمد بن قلاوون
(ابن السيوفى) فهو الذى نفذ عمارتى المدرسة الاقباقية بالأزهر ،
وجامع الماردانى سنة ٧٤٠ هـ (٤) ١٠٣٤ م . ومجهوده فى كليهما يدل
على براعته واقتداره . وبالبناء التيريزى الذى بنى منازل مسجد
وخانقاه قوصون سنة ٧٣٠ — ٧٣٧ .

وعرفنا منه أيضا ابجيح مهندس الملك الصالح عماد الدين اسماعيل
ابن محمد بن قلاوون . الذى أوفده فى سنة ٧٤٥ هـ ١٣٤٥ م الى
مدينة حماده مع شاد عمائره . لمعاينة عمارة الملك المؤيد المعروفة
بالدهيشة ليبنى له مثلها بالقلعة (٥) .

(١) ٢٦٥ ج ٢ المواظ .

(٢) ١٨١ ج ٢ المواظ .

(٣) ٢٦٠ ج ٢ المواظ .

(٤) ٣٨٤ ج ٢ المواظ .

(٥) ٢١٢ ج المواظ .

وأنبأنا المقرئى عما شاهده فى القرن الخامس عشر الميلادى فى
فى حوائت الرسامين فى سوق البندقانيين ، وفى سوق البندقانيين
لرسم أشكال ، ليطرز بالذهب والحرير (١) .

ويصف الدقائق المعمارية ، فيقول عن أساسات قصر يلغا
اليحياوى ٧٣٨ هـ ١٣٣٨ م انها عملت (٢) « حصيرة واحدة » وهو
اضطلاع فنى مستعمل الى الآن .

وأن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى لما أراد بناء مسجده بالظاهر
ووقع الاختيار على موقعه ، خرج مع مهندسيه لمعاينة المكان ، وعرضوا
عليه مقايسته . ثم رسم يبين شكل الجامع (٣) .

والمرجع أن خطط بالجير ، وهى طريقة متبعة الى الآن .

وعندما تكلم على جسر الخليلى على النيل ، شرح طريقة عمل
الجسور بدون الخوازيق من خشب السنط .

ومن وصفه لحضارة الدولة الفاطمية وبذخها ، سجل لمصر
الاسلامية معرفتها بعمل النماذج المجسمة (ماكيت) . فقد كان فى
خزانة الجواهر والطيب والطرائف ، نموذج لبستان . أرضه من فضة ،
وطينه ندى وأشجاره فضة مذهبة مصنوعة ، وأشجاره عنبر ، وبطيخة
كافور ، بلغ وزنه ٣٠٦ أرطال (٤)

هذا عدا ما أشار اليه من نماذج الحلوى فى الدولة الفاطمية . ففى
سنة ٣٨٠ هـ ٩٩٠ م قدم فى سماط عيد الفطر ، نماذج لقصور السكر

(١) ٢٠٢٧ ج ٢ المواظ .

(٢) ٧٢ ج ٢ المواظ .

(٣) ص ٣٠٠ ج ٢ المواظ .

(٤) ٤١٧ ج ٢ المواظ .

والتماثيل . وعمل بدار الفطرة قصرين من الحلوى زنة كل قصر ١٧ قنطار بشكل متقن مدهون مذهب ، فيه تماثيل أشخاص بارزة (١) .

وعنى عناية خاصة بالمراصد الفلكية التي أنشئت بمصر والقاهرة ووصفها وصفا فنيا بمصطلحاتها . وأعطانا سجلا بأسماء مهندسى (٢) المراصد وعلماء الفلك .

ومما قرأه من نصوص تاريخية عرفنا أنه كان قارئاً للخط الكوفي . فقد قرأ على قنطرة عبد العزيز بن مروان على الخليج ما نصه .

هذه القنطرة أمر بها عبد العزيز بن مروان الأمير ، اللهم بارك له في أمره كله ، وثبت سلطانه على ما ترضى وأقر عينه في نفسه وحشمه أمين . وقام ببنائها سعد أبو عثمان وكتب عبد الرحمن في صفر سنة تسع وستين (٣) .

وقرأ على لوح رخامى فوق باب السيدة نفيسة .

بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب لعبد الله ووليه معد أبى تميم الامام المستنصر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين . أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الانام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين وأدام قدرته ، وأعلى كلمته ، وشده عضده بولده الأجل والأفضل سيف الامام جلال الاسلام ، شرف الأنام ناصر الدين خليل أمير المؤمنين ، زاد الله في علائه ، وامتع المؤمنين بطول بقائه في شهر ربيع الآخر سنة اثنين وثمانين وأربعمائة (٤) .

(١) ص ٢٨٣ ج ١ الموعظ .

(٢) ص ١٢٦ ج ١ الموعظ .

(٣) ص ١٤٦ ج ٢ الموعظ .

(٤) ص ٤٤٢ ج ٢ الموعظ .

وقرأ ما هو مكتوب بالخط الكوفي على جامع فتح بدمياط أن
عمر بعد (١) سنة خمسمائة من الهجرة . وسجل لصالح الدين يوسف
ابن أيوب انشاء ديوان الأسوار ، لعمارة سور القاهرة من ايراد
ما وقفه عليه . وخص القسطنطين بانفرادها بصناعة الورق (٢) المنصوري
دون القاهرة .

المصطلحات الفنية للعمارة الاسلامية :

كان لاطلاع المقرئ على وثائق المنشآت واشرافه على الصناعات
أثره في استعماله المصطلحات الفنية للعمارة والتي ما زلنا نستعملها .
اذكر منها .

ايوان — اسكفه — بدنه — باشورة . باذهنج — برج تابوت —
حوش — خوخه — دركاه — دهليز — دورقاعة — رفرف — رواق —
دبك رحبة — زلاقة — ساباط — ساقية — ساحة — سلقون — سكرجه
سدلا — شرفه — طراز — طاقة — عتبة — عتب — عقد —
عضائد — فسقيه — فواره — قاعة — قفل — منارة — مصنع —
وزرة — مقصورة — مقرنص .

وهو في حديثه عن المنشآت المعمارية ، يسجل على بعض منشيئها
طمس آثار من سبقهم ونقل أنقاضها وادماجها في منشآتهم ، معلقا على
ذلك « اذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد .

ثم أشار الى عدة اعتداءات مثل ، هدم الناصر صلاح الدين لسور
مدينة (٣) نصنا وشحن أحجاره ليبنى بها سور القاهرة . وما فعله الملك

(١) ص ٢٢٤ ج ١ الموعظ .

(٢) ص ٣٦٧ ج ١ الموعظ .

(٣) ص ٣٠٤ ج ١ الموعظ .

الصالح نجم الدين أيوب عند بناء قلعته بالروضة من هدم المساجد والقصور وأخذ أنقاضها وعمدها (١) .

وقد جازاه الله على ذلك فان القلعة لم تعمر طويلا ونهبها مماليكه ونقلوا منها ما احتاجوا اليه في منشآتهم .

ويشير الى الباب الرخامى لمدرسة الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين بأنه منقول من احدى كناسى عكا بعد أن استولى عليها الأشرف خليل وطرد الصليبيين منها . ويصفه بأعجاب وصفنا فنيا « بأنه من أعجب ما عملته أيدي بنى آدم . وانه من الرخام الأبيض البديع العائق للصناعة وأنه وقواعده وعمده وأعضاده من رخام كل ذلك فيصل بعضه ببعض (٢) .

هذا عدا ما أشار اليه من نقل مخلفات المساجد المتخرية والسطو عليها بدلا من ترميمها . وسجل على الأمير جمال الدين الاستادار اعتداءاته على الآثار السابقة له وأخذ أنقاضها ، فقد هدم مدرسة الأشرف شعبان التى كانت تحت القلعة وأخذ أنقاضها فى بنائها مدرسته بالجمالية . وكذلك هدم مدرسة الأشرف خليل التى كانت تجاه القلعة واستعمل أحجارها فى بناء منارة كانت بالأزهر .

ويعلق على ذلك بأن الله كان له بالمرصاد فسلط عليه السلطان الناصر فرج بن برقوق فعاقبه ومحا اسمه ورنكه من المدرسة الجمالية ووضع اسمه مكانه .

وأحصى الكثير من تلك الاعتداءات ومنها ما فعله الملك المؤيد شيخ من أخذه عمودى المحراب من مسجد قوصون ، وأخذ الباب المصنح بالنحاس والتتور من مدرسة السلطان حسن .

(١) ص ٣٨٢ ج ٢ الموعظ .

(٢) ص ٤٠١ ج ٢ الموعظ .

وعلق على فتوى بعض العلماء بعدم جواز الصلاة في مسجد قلاوون لأنه اغتصب قاعة القطية وأدخلها في بناء اليمارستان المنصوري (بقوله) .

« ان كان التخرج من الصلاة لأجل أخذ الدار القطية من أهلها بغير رضاهم واخراجهم منها بنعسف واستعمال أنقاض القلعة بالروضة. فلعمري ما تملك بنى أيوب الدار القطية وبنائهم قلعة الروضة . واخراجهم أهل القصور من قصورهم التي كانت بالقاهرة ، واخراج سكان الروضة من مساكنهم . الا كأخذ قلاوون للدار القطية وبنائها بما هدمه من القلعة المذكورة واخراج مؤنسة وعيالها من الدار القطية . وأنت اذا أمعنت النظر وعرفت ما جرى ، تبين لك ، أن ما القوم الا سارق من سارق ، وغاصب من غاصب ، وان كان التخرج من الصلاة لأجل عسف العمال وتسخير الرجال فشيء آخر — بالله عرفنى فانى غير عارف . من منهم لم يسلك هذا السبيل ؟ غير أن بعضهم أظلم من بعض . (١)

بهذا النقد الصريح اللاذع حمل على الدولة الأيوبية التي قضت على الدولة الفاطمية انتقاما لها .

الصناعة :

كان لاتفرد المقرئى عن جميع المؤرخين بتدوين حضارة الدولة الفاطمية وآثارها وشرحه بدقة واطناب لما جوته خزائهم ، الوقوف على تقدم الصناعات وازدهارها ، وان مصر كانت من أروج الأسواق بمنتجاتها وبما تستورده . فيصف في خزانة الجواهر وأوانى البللور وعلى بعضها اسم العزيز بالله وصوانى الذهب المشغولة بالميناء .

(١) ص ٤١٨ ج ٢ الموعظ .

وسكاكين الذهب والفضة والدوى المصنوعة من الذهب والفضة وسائر أنواع الأرائك المحلاة بالجواهر والذهب .

هذا عدا الحلى والمرايا ، والصوانى المكفته بالذهب ، والتماثيل والطيور ومنها طاووس مرصع بالجواهر عيناه ياقوت أحمر ، وديك من الذهب له عرف من الياقوت . وغزال مرصع بالدر والجواهر ، ونخلة من ذهب بجميع الطلع والبلح والرطب . وغير هذا كثير .

وقد دخل الذهب فى تحلية الكثير من المقتنيات والأثاث فقد كان فى خزانة السروج خدد كبير من الصاغة وغيرهم لا ينقطعون عن العمل ، حتى أن مهاميز الخيول كانت تصنع من الذهب والفضة ، كما كان فى خزائن السلاح عدد كبير من الصاغة وغيرهم .

وكان فى خزانة البنود ثلاثة آلاف صانع ماهرين فى سائر الصناعات كما كان فى القصور الفاطمية مستخدمات من أرباب الصناعات الدقيقة .

وكان الخليفة الفاطمى المعز لدين الله يجمع مهرة الصناع ويلحقهم بخدمته وبمصالح الدولة ويفرد لهم مساكن خاصة . كما كان يطلب الى عماله على الأقاليم أن يرسلوا اليه من يتوسمون فيه الصلاحية لمثل هذه الأعمال .

وكان من بينهم عمال أجانب خصص لاقامتهم المناخ خلف القصر الكبير ، وكان به عدد كبير من المخازن بها الحديد والخشب والطواحين وأدوات الأساطيل والأسلحة ومنتجاتهم الصناعية (١) .

وكان من بينهم رئيس الصناعة « الترسانة » الصقلى الذى

(١) انظر خزائن القصور الفاطمية ص ٤٠٨ الى ص ٤٢٥ ج ١ المواظ .

(٢) ٤٤١ ج ١ المواظ .

أشرف على عمل العشاريات اللطاف ذات الألوان الذهبية والفضية
ومختلف الألوان .

وقد ظلت الدولة الفاطمية تنتفع بهؤلاء الصناع الى أن أدركت
الدولة الأيوبية منهم عددا كبيرا انتفعت به .

وبمناسبة العناية بالأسطول في مصر الاسلامية ، حدثنا بإفاضة
عن الأسطول وعن دور الصناعة وعن الاحراج ومواطنها من بلدان
مصر ، فقد كانت في البهنساوية ، وسقط رشين ، والأشمونين ،
وأفضنا ، والأسيوطية والاخميمية — والقوصية — أشجار لا تحصى
من سنط وغيره ولها حراس يحرسونها كي تصنع منها مراكب الأسطول
ويؤخذ منها للعمائر أيضا (١) .

صناعة النسيج :

ولما تناول الأقاليم المصرية اهتم بصناعاتها . وكان للنسيج حظ
موفور من عنايته سجل فيه لمصر فضل السبق في تلك الصناعة
كتب من البهنسا « بها تعمل السنور السفور البهنسية وينسج المطرز
والثياب المحبرة .

وكتب عن تنيس أن أهلها مياسير وأكثرهم حاكه . وبها تحاك ثياب
الشرب التي لا يصنع مثلها في الدنيا . وكان يصنع بها للخليفة ثوب
يقال له البدنة لا يدخل فيه من الغزل أسداء ولحمه غير أوقيتين .
وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة
تبلغ ألف دينار . وليس في الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب منه وهو

(١) ص ١١١ ج ١ المواعظ .

(٢) ص ٢٣٧ ج ١ المواعظ .

مناذج بغير ذهب مائتي دينار غير طراز تنيس ودمياط (١) والشرب
مارقة من نسيج الكتان .

وامتازت شطا وريفو ودميرد وتونه وما قاربها من تلك الجزر
بعمل النسيج الرفيع ما يقارب التنيسى والدمياطى .

وكانت كسوة الكعبة تعمل فى تونة وفى شطا وتنيس ودمياط ،
ذكر الفاكهى مؤرخ مكة ما قرأه على كسوات عملت فى تلك البلاد
مؤرخه بسنى ١٥٩ ، ١٩٠ ، ١٩٧ هجرية (٢) . وما زالت مصر تعتز
بهذا الزى ومنفردة بتلك الصناعة الدقيقة .

وأشار أيضا الى دقة نسيج الصوف فى مدينة القيس بجوار
البهنسا وخاصة الستور والمضارب (٣) .

أما الاسكندرية فقد وصفها بأن الثياب المنسوجة بها لا نظير لها
فى أقطار الأرض .

واشتهرت ديبق من قرى دمياط بنسيج الثياب المثقلة والعمائم
الشرب الملونة (٤) والديبقى المعلم المذهب . وكانت العمائم الشرب
المذهبة تعمل بها .

وكان فى خزانة الفرش والأمتعة الفاطمية أنواع الملابس المنسوجة
فى ديبق وعليها تطريز بالطيور والقيلة المصورة . وستور حريرية
منسوجة بالذهب على اختلاف أنواعها وأطوالها ، وعلى بعضها صور
الدول وملوكها مكتوب عليها تاريخ كل ملك ومدة حكمه .

(١) ص ١٧٧ ج ١ المواعظ .

(٢) ص ١٨١ ج ١ المواعظ .

(٣) ص ١٨٢ ج ١ المواعظ .

(٤) ص ٢٢٦ ج ١ المواعظ .

كما كان بها خريطة على مقتطع من الحرير الأزرق التستري ،
منسوج بالذهب وألوان الحرير أمر بعمله المعز لدين الله سنة ٣٥٣ هـ
٩٦٤ م فيه صور أقاليم الأرض وجبالها وبحارها وأنهارها ومدنها وفيه
صور مكة والمدينة . وفي آخرها مما أمر بعمله المعز لدين الله شوقا
الم حرم الله واشهارا لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ ٩٦٤ م (١) .

صناعة الزجاج :

حدثنا المقرئى أنه كان بوادى النطرون معمل للزجاج . وعند
كلامه على قرية سمناي من قرى تنيس ذكر أن قوما كشفوا فيها
سنة ٨٣٧ هـ ١٤٣٣ م عصابات زجاج كثيرة مكتوب على بعضها اسم
الامام المعز لدين الله وعلى بعضها اسم الامام العزيز بالله نزار . ومنها
ما عليه اسم الامام الحاكم بأمر الله . ومنها ما عليه اسم الامام الظاهر
لاعزاز دين الله ومنها ما عليه اسم المستنصر وهو أكثرها « كما
أخبرنى بذلك (٢) من شاهده ورآه » .

صناعة البسط : (السجاد)

ونستخلص من أحاديثه العابرة ازدهار صناعة البسط فى مصر فى
مختلف عصورها ، وذلك حينما ذكر نهب قصر قوصون أنه وجد فى
مخازنه مائة وثمانين زوج بسط ، منها ما هو طوله من ٤٠ الى ٣٠
ذراعا (عمل البلاد) ، ١٦ زوج عمل الشريف بمصر ثمن كل زوج اثنا
عشر ألف درهم نقره منها أربعة أزواج بسط من حرير (٣) .
وفرشت المدرسة الظاهرية برقوق بسجاد من عمل الشريف ، كما
فرشت المدرسة الاقباوية وغيرها ببسط عملت خصيصا لها بمصر .

(١) ص ٤١٧ ج ١ المواعظ .

(٢) ص ١٨١ ج ١ المواعظ ويقرر الزميل الدكتور عبد الرحمن فهمى أمين
متحف الفن الاسلامى والمتخصص فى علم النبات أن العصابات هى جنح السكة .

(٣) ص ٧٣ ج ٢ المواعظ .

صناعة الخيام :

ومن وصفه لخزانة الخيام في القصور الفاطمية ، وقفنا على مدى تقدم هذه الصناعة ، فقد كانت تقام منها قصور وسرادقات وتشكيلات ما بين مضارب ومسطحات وحصون وقساطيط ، صنعت من أنواع الحرير الديبقي والمخمل ، والخسرواني ، والديباج ، وعليها رسوم السباع والفيلة والطاووس وأنواع الطيور بألوانها .

هذا عدا قوائمها المكسوة بالفضة — ومن مشاهير صناعها والمشرفين عليها أبو الحسن علي بن الحسن الخيمي وأبو الحسن علي ابن أحمد الحلبي المعروف بالأيسر .

وكان يعمل في صناعة بعض قصور الخيام ما بين ٥٠ — ١٥٠ صانعا (١) .

وقد ظلت تلك الصناعة على ازدهارها الى عصر المماليك واشتهرت منها قصور من الخيام ، والى الآن تنفرد مصر بهذه الصناعة على سائر قطار .

صناعة التكفيت :

ازدهرت صناعة النحاس في مصر منذ العصر الفاطمي ومتاحفنا زاخرة بروائعها ما بين تنائير ومشكاوات وقناديل ومباخر وكثير منها مكفت بالذهب أو الفضة ، وكان لصناعة التكفيت سوق رائجة بحيث كانت لا تخلو دار بمصر أو القاهرة من عدة قطع من النحاس المكفت ولا بد أن يكون في شوار العروسة دكة نحاس مكفت (٢) .

(١) ص ٤١٦ — ٤٢٠ ج ١ الموعظ .

(٢) ص ١٠٧ ج الموعظ .

ومن التناير والقناديل ما اتخذ من الذهب أو الفضة أو كفت بأحدهما ، فقد أمر الحاكم بأمر الله بعمل ثريا من الفضة لجامع (١) عمرو بن العاص نقل إلينا المقرئى وصفها الفنى .

فقد وصفت بأن شكلها غير متنافر فى الطول والعرض بها عشر مناطق فى كل منطقة ١٢٠ بزاقه وفيها سروات بارزة مثل النخيل فى كل واحدة عدة بزاقات . تقرب عدة ذلك من ٣٠٠ ، ومعلق بدائر أسفلها مائة قنديل نجومية .

وكان لوصفه الفنى لتلك الثريا خير عون للمشتغلين بالآثار وفى معرفة تفاصيلها ومسمياتها .

وانتشرت الثريات النحاسية والشمعدانات والكراسى والصناديق فى دولتى الممالك ومنها ومن غيرها الطرف النحاسية المكفنة بالذهب والفضة ومجموعات قيمة بمتحف الفن الاسلامى . منها كرسى نادر مكفت بالذهب والفضة باسم الناصر محمد بن قلاوون .

هذه لمحات عن عناية المقرئى فى خطته بالعمارة والصناعة ما زالت شاهدة بفضلته ودقة مشاهداته .

(١) ص ٢٥٠ ج ٢ المواظ .

حول دار المقرئى

للأستاذ حسن عبد الوهاب

كان ختام ندوة المقرئى سنة ١٩٦٦ جولة حول موضع داره للأستاذ حسن عبد الوهاب من باب الفتوح الى مدرسة وقبة وبیمارستان المنصور قلاون .

وقد وقع الاختيار على تلك المنطقة من قصبة القاهرة الفاطمية وشارعها الأعظم ، حيث كانت دار المقرئى « فى حارة برجوان » فنشأ فيها وترعرع ، وكانت ملعب أقرانه وموطن خاصته وعامته . وكانت داره ندوة علم ومقصد الطلاب والعلماء .

وترى المقرئى فى خطه لا يغفل تاريخ هذا الحى مشيدا بذكرياته وما احتواه من آثار وما كان يحيط به من أسواق جمعت طرائف السلع مثل سوق الكتبين ، وصقالى الورق ، وباعة الشموع ما بين موكبية وفانوسية ، وسوق الطيور الملونة والمغرودة ، وشارع بين القصرين وقت أن كان يحول فى الليل الى اندية للعلم واللهو ، يقصده سكان القاهرة للاستمتاع بمناجحه .

هذا المحيط المبهج كان له أحسن الأثر فى تكوين المقرئى وصقله . وكانت حارة برجوان متسعة متصلة بسوق أمير الجيوش والخرشتف (الخرنفش) وبلغ من اعتزازه بها ذكره لها فى مقدمة حارات القاهرة بعد حارة بهاء الدين ، فذكرها فى الصحيفة الثانية فى الجزء الثانى من

خطته بأنها منسوبة الى الأستاذ أبو الفتوح يرجوان الخادم . وكان خصيا أبيض تربى في دار الخليفة العزيز بالله وولاه شؤون القصور ، وبلغت حظوته في دولة الحاكم بأمر الله أنه كان الواسطة بين الناس وبينه الى أن غدر به الحاكم وأوعز بقتله في ٢٦ ربيع الآخر سنة ٣٩٠ هـ ١٠٠٠ م .

ثم تراه مفاخرا بها قائلا « وأدركت (١) سوق حارة برجوان أعظم أسواق القاهرة ، ما برحنا ونحن شباب تفاخر بحارة برجوان ، سكان جميع حارات القاهرة ، فنقول بحارة برجوان حمامات يعنى حماما الرومى وحمام سويدان ، فانه كان يدخل اليها من داخل الحارة وبها فرنان ، وبها السوق الذى لا يحتاج ساكنها الى غيره .

وبلغ من عنايته بالحارة ذكره لرحابها ومساجدها ودورها وقصورها ذكر خير بسكانها ، مسلسلا بتمليكها على مر العصور ؛ مما يؤكد أنها كانت لسكنى الخاصة ، فيذكر من رحابها رحبة جعفر بأنها تجاه حارة برجوان ، يشرف عليها شباك مسجد يزعم العامة أن فيه قبر جعفر الصادق (٢) وهو غير صحيح .

وبها رحبة الأفيال يتوصل اليها من رأس الحارة ، أدركتها ساحة كبيرة • والمشيخة تسميها رحبة الأفيال • وكذا يوجد في مكاتب الدور القديمة (٣) ، ورحبة مازن تجاه دار مازن (٤) التى خربت ، وبها المسجد المعروف بمسجد بنى الكرك .

ورحبة أقوش — تجاه قاعة الأمير جمال الدين أقوش الرومى السلحدار (٥) الناصرى .

(١) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٩٥ طبع بولاق .

(٢ - ٥) (٥ - ٢) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٩ .

[illegible]

ويذكر من دورها دار المظفر التي انشأها أمير الجيوش بدر الجمالي وصارت فيما بعد دار (١) ضيافة دار عبد العزيز — على يمنية من سلك من باب (٢) الحارة طالبا حمام الرومي . ودار الجمدار على يسرة من سلك (٣) من باب حارة برجوان تحت القبو طالبا حمام الرومي . ودار أقوش (٤) الرومي وغيره من دور كبار الأمراء .

وحدثنا ابن تغري بردي عن دار المقریزی . بأنه سمع كتاب فضل الخيل . تأليف الحافظ شرف الدين أبوك محمد عبد المؤمن الدمياطي بقراءة الحافظ قطب الدين الحيضري ، في أربعة مجالس آخرها سلخ شعبان سنة ٨٤٥ هـ بالقاهرة في منزل المسمع بحارة برجوان على الشيخ الإمام العلامة مؤرخ الديار المصرية تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقریزی (٥) ...

ثم توالى على الحارة التغيرات بعد عصر المقریزی ، فضاعت معالمها وقسمت الى أزقة ودور صغيرة يتخللها زاوية جولاق وجامع أبوبكر مزهر . وعلى رأسها جامع وسيل وقصر سليمان أغا السلحدار فشغل ساحة كبيرة . ومن وقتها اطلق على الطرف الشرقى من الحارة اسم عطفة السلحدار .

واذا كان جمهرة المؤرخين والآثار بين يعرفون أن دار المقریزی كانت برجوان ، فانهم لم يعرفوا مكانها لضياغ معالمها والتغيرات التي طرأت على الحارة الى أن سنحت الفرصة عفوا . فقد كتبت وزارة الاوقاف في مايو سنة ١٩٥٧ الى مصلحة الآثار تطلب ابداء الرأى في استبدال قطعة الأرض رقم ١٢ بعطفة السلحدار وقف تقي الدين المقریزی الخيري . وذلك طبقا لما هو متفق عليه بين الآثار والأوقاف

(١) ٥٢ ج ٢ المواظ .

(٢ - ٤) والمواظ والاعتبار ج ٢ ص ٥٣ .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢١٩ .

بضرورة معاينة الأماكن المستبدلة لاحتمال أن تكون أثرية أو بها مخلفات أثرية .

وبناء على هذا الاخطار رجعت الى مستندات قسم الاستبدال بوزارة الأوقاف واطلعت على جدول محصر أرض المنزل المطلوب استبداله وتأكدت من اسم واقف الأرض (المقریزی) ، وتحققت من أنها جزء من أرض دار المقریزی . وأن مالك المنفعة عليها (أى صاحب المباني المقامة عليها) مخصص حجة مؤرخة ١٣ ربيع الآخر سنة ١٢٨٣ هـ هو عبد الوهاب محمد النازي ، كات نقابة الاشراف . وقد أوقف مباني المنزل على مصالح رواق الجبرت ورواق المغاربة بالجامع الأزهر بحجة ايقاف محررة بحكمة مصر الشرعية بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٣١٣ نمرة ١٠٥ سلسلة ص ٨٤ والدار المذكورة بسيطة وحديثة الانشاء تجاورها دار أخرى رقم ١٤ ، ثم بقايا خربه رقم ١٦ ، لا شك في أن دار المقریزی كانت تشغل كل هذه المساحة التي تجعلها على رأس حارة برجوان . وفعلا فانه بعد هدم قصر سليمان أغا السلحدار وانشاء مدرسة ودور حديثة على مساحته أصبحت دار المقریزی في ساحة المدرسة وعلى رأس الحارة .

وقد وافقت لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في جلستها المنعقدة بتاريخ ١٩٦٦/٥/٨ على ما اقترحته من انشاء مكتبة تحمل اسم المقریزی على رقعة الأرض التي كانت عليها دار المقریزی ، واطلاق اسمه على المدرسة المنشأة حديثا تجاهها المسماة « بمدرسة الكمال »

حسن عبد الوهاب

القبائل العربية في مصر عند المقرئ

للككتور إبراهيم أحمد رزق

تتبع القبائل العربية سواء في مصر أو في ليبيا أو في المغرب العربي من الموضوعات الهامة لأنها تفسر لنا الظاهرة التاريخية العظيمة ألا وهي الأطلسي في الغرب الى اللغة العربية والثقافة العربية . فلم تكن الفتوحات تحول هذا الأقليم الكبير من أطراف هضبة ايران في الشرق الى المحيط بالعربية بدعا بين الفتوحات من حيث اتساع مداها ، فمن قبل الفتوحات العربية شهدت المنطقة فتوحات الفرس ثم اليونان ثم الرومان الا أن أهلها لم يتحولوا الى الثقافة الفارسية أو اليونانية أو اللاتينية . ولكن ما أن تشهد المنطقة الفتح العربي حتى تتحول الى الثقافة العربية ، فليس الأمر اذا أمر فتح عسكري . كما أن الأمر ليس أمر عقيدة دينية ، فمن قبل الاسلام انتشرت المسيحية في جهات كثيرة ، ومع ذلك لم يؤد انتشارها الى تحول فرد واحد من لغته الأصلية الى لغة المبشرين كبيرة . والمشيخة تسميها رجة الأفيال ، وكذا يوجد في مكاتب الدور بالمسيحية ، بل ان عدد المسلمين غير العرب يفوق في الوقت الحالي عدد المسلمين العرب بكثير مما يظهر بجلاء أن التحول الى العربية وان كان قد بدأ مع الاسلام الا أن العربية انحصرت داخل اطار معين بينما انطلق الاسلام وحده فأصبح لدينا عالم اسلامي عربي وآخر غير عربي . فأما العالم الأول فهو من صنع القبائل العربية التي انتشرت فيه مع الفتح الاسلامي وبعده .

وهناك ظاهرتان تسترعيان الانتباه في التحول الى العربية :

الظاهرة الأولى أن بعض البلاد كمصر كانت ذات لغة مكتوبة ، وكان كتابها المقدس مدونا سواء في العصر الفرعوني أو في العصر القبطي ومع ذلك فانها تتحول الى العربية تحولا تاما ، بل تجيد هذا التحول حتى تصبح مصدرا رئيسيا من مصادر العربية .

الظاهرة الثانية أن العربية تمكنت من كل أجزاء الوطن العربى بحيث لم يعد أحدها أصلا للعربية الباقي فروع ، أو أحدها مورد لها والباقي مستورد . فإذا كانت العربية قد خرجت من شبه الجزيرة ، فانها لم تعد المورد الوحيد للعربية بل يشاركها في هذا كل أجزاء الوطن العربى لا فرق في هذا بين مشرقه ومغرب (١) ، ولعل هذا هو السبب في عدم انكماش الاطار العربى منذ الفتح الاسلامى الأول ، ولعل هذا هو السبب في أن القومية العربية دائما متجددة رغم ما تعرض له الوطن العربى من غزوات كان أخطرها الغزوات الآتية :

١— غزوات الصليبيين في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

٢— غزوات المغول في منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

٣ — غزوات الأوروبيين في القرن التاسع عشر الميلادى .

وكانت كل هذه الغزوات ذات هدف واحد هو استعمار الوطن العربى والقضاء على عروبه . ولكن كل هذه الغزوات لم تبؤ بالفشل فحسب ، بل كانت في كل مرة تجدد من القومية العربية روحها وثقافتها وتضامنها السياسى .

(١) اذا كان كتاب الانجليز من الانجلترا والفرنسيين من فرنسا والامان من المانيا والروس من روسيا فان كتاب العرب مثل الطبرى والسعودى وابن الاثير وابن بخلكان وابن خلدون والقريزى والجاحظ والقلقشندي ليسوا كلهم من شبه الجزيرة .

ويرجع هذا الخط الثابت لسير القومية العربية الى أن تعريب الدم كان أساسا لتعريب اللسان ، وهو ما يعطينا المقرئى بعض المعلومات عنه .

ولقد استحق الشيخ أحمد بن على تقى الدين المقرئى (١) لقب « الطبغرافى العظيم » وأصبح هذا اللقب يعنى عن اسمه وذلك بفضل عنايته بتسجيل الظاهرات الجغرافية للأقليم الذى يكتب عنه طبيعة كانت أو بشرية .

ولقد كتب المقرئى رسالة عنوانها « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب » أعطانا فيها سجلا عن القبائل العربية التى دخلت مصر مع الفتح العربى وعن أماكن هذه القبائل فى عصره (٢) .

وكان للمقرئى ولع بهذا النوع من الدراسة ؛ فقد كتب كذلك « الخبر عن البشر » ذكر فيه قبائل العرب فى أربعة مجلدات وعمل له مقدمة فى مجلد ، وذلك من أجل ذكر نسب النبى صلى الله عليه وسلم .

وكذلك لا تخلو كتب المقرئى الأخرى من إشارة الى هذا الموضوع ، ففى « الخطط » وفى « السلوك فى أخبار الملوك » وفى « الامام فى أخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام » وفى « الطرق الغربية فى أخبار دار حضرموت النجبية » ، فى هذه الكتب لا يلجأ المقرئى الى طريقة سرد الحوادث أو ذكر تاريخ الشعوب بذكر تواريخ الملوك ، وإنما جعل أساس روايته الآثار والديار والعبادات

(١) نسبة الى مقرئ وهو محلة فى بعلبك . للمقرئى بعلبكى الأصل ، مصرى المولد والاقامة والوفاة ، ولد بعد سنة ٧٦٠ وتولى سنة ٨٤٥ هـ ودلن بمقبرة الصولية خارج باب النصر من القاهرة .

(٢) كتب المقرئى هذه الرسالة فى سنة ٨٤١ هـ أى قبل وفاته بأربع سنوات . وقد طبعت فى جوتنجن سنة ١٨٤٧ مع ترجمة المانية للمستشرق وقد تولى نشر هذه الرسالة بمصر ابراهيم رمزى نقلا من النسخة الألمانية السابقة وطبعت سنة ١٩١٦ فى مطبعة المعارف على نفقة حمد الباسل .

والأعمال والصناعة والتجارة وغير ذلك من وجوه نشاط الناس ، فيعطى بذلك صورة كاملة للعصر . ومن أجل هذا الأسلوب في معالجة المواضيع أطلق عليه المستشرقون اسم « الطبغرافى العظيم » لأنه لا يذكر أخبارا وإنما يعطى صورة .

وقد بدأ المقرئى رسالته « البيان والاعراب » بتحديد الهدف من كتابتها فقال : « هذه مقالة وجيزة في ذكر من بأرض مصر من طوائف العرب قيدها لنفسى ومن شاء الله تعالى من أبناء جنسى » . ثم يعطينا حقيقة هامة عن الدماء العربية في مصر في عصره فيقول : « أعلم ان العرب الذين شهدوا فتح مصر قد أبادهم الدهر ، وجهلت أحوال أكثر أعقابهم ، وقد بقيت من العرب بقايا بأرض مصر » ثم يستطرد المقرئى ويذكر معلوماته عن هذه البقايا ويقول بوجود ست عشرة قبيلة هي ثعلبة ، وجرم ، وسبنس وجذام ، وبنو هلال ، وبلى ، وجهينة ، وقريش وكنانة ، والأنصار ، وعوف وفزارة قيس ، ولواته ، ولخم وحرام وبنو سليم . ويمكن أن نستخلص مما ذكره المقرئى النقاط الآتية : —

١ — القبائل الثلاث الأولى ، ثعلبة وجرم وسبنس ، كانت تنتمى الى أصل واحد ، فكلها من طيىء ، كما كانت تشترك في الموطن ، فكانت تسكن اقليم الدحود المصرية الفلسطينية ، ولذلك كانوا أكثر القبائل تأثيرا بالحوادث التاريخية ، فثعلبة وجرم كانتا يدا مع الفرنج لما تغلبوا على البلاد ، كما أن عددهما تكاثرا بمصر على اثر فتح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لبلاد غزة واعادتها من يد الفرنج الى المسلمين . وكذلك سبنس كانت تنزل بفلسطين ، فلما كثر عددهم هناك واشتدت وطيرتهم على الولاة جلب بعضهم الى مصر سنة ٤٤٢ هـ واقطعوا أجزاء في البحيرة بغرب الدلتا . ولكنهم مارسوا في مصر كذلك عاداتهم في التدخل في السياسة المحلية . فلما تولى السلطنة المعز

عز الدين آييك التركمانى أول ملوك الترك بديار مصر ، وأنثت عربان مصر من تملكه عليهم لانه مملوك من جملة الممالك البحرية قد مسه الرق ثاروا عليه وأقاموا الشريف حصن الدين ثعلب فى سنة ٦٥١ هـ أميرا عليهم ، ولكن الاتراك قاتلوهم وتغلبوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم بالبحيرة ، ففروا الى ناحية سخا ~~سحا~~ غربية حيث استجاروا ببعض القبائل هناك ، منها قبيلة لواته ، ولكن الترك أوقعوا بهم جميعا وقعة شنيعة قتلوا فيها رجالهم وسبوا حريمهم ونهبوا أموالهم ، فذلت سنبس بعد ذلك وقلت صارت متفرقة بالغربية .

٢ — القبيلة الرابعة « جذام » كانت باقليم شرق الدلتا (الجوف الشرقى) وكانت تتجول بين القاهرة وبين عقبة أيلة (بلدة العقبة الحالية على رأس خليج العقبة) . ولكن لم يلبث الكثيرون منهم أن شاركوا فى الحياة المصرية فى الوظائف وفى الزراعة فكان أكثرهم كما يقول المقرئ مشايخ البلاد وخفراءها ولهم مزارع . بل وصل بعضهم الى الوزارة فكان منهم الوزير شاور واليه ينسب بنو شاور كبار منية غمر على عهد المقرئ ومنهم أهل برهنتوش . وكانت مساكنهم الرئيسية بين منية غمر وزفيتا (ميت غمر وزفتى) . ولكن كانت لهم عدة اقطاعات منتشرة فى اقليم الشرقية منها هريط وتل بسطة . وجذام من قدماء عربان مصر قدموا مع عمرو بن العاص وانتشروا فى الجوف الشرقى ، ولكنهم تأثروا بسياسة الحكام اللاحقين ، فالسلطان صلاح الدين وسع لثعلبة فى بلاد جذام ، فكانت فاقوس وما حولها لهلبا سويد وكانت البرمون للحيادة .

٣ — كان الخلفاء والولاة يتبعون سياسة رسمية لتسيير القبائل الى مصر ، أى أن هجراتهم كان بعضها منظما بمعرفة الحكومة العربية المركزية . وقد حدث هذا لقبيلة سنبس كما ذكرنا ، وحدث مثله لقبيلة بلى ، اذ يقول المقرئ أن عمر بن الخطاب كتب الى عامله بالشام أن

يسير ثلث قضاة الى مصر ، فنظروا فاذا بلى ثلث قضاة فسيروا الى مصر فكانت بلى متفرقة بأرض مصر ، ولكن أغلبها سكن الصعيد مع بنى هلال وجهينة فكان لبلى الأرض من عقبة قاو الى عيذات وكذلك وأن بأخميم منهم بنو قرّة ، وبساقية قلته بنو عمرو وبأصفون واسنا بنو عقبة وبنو جميلة . وأما بلى فينتسب اليهم بنو شاد وهم الأمراء وكذلك منهم بنو حماد ، وبنو فضالة وهم بمنفلوط وبنو حيار وهم يفرشوط . ولم تكن بلى تجاور بنى هلال فقط وانما كانت تجاور جهينة كذلك ، حتى أنهما اضطرتا الى تقسيم الأرض بينهما . فيقول المقرئ أن جهينة من قبائل اليمن وهي أكثر عرب الصعيد ، وكانت مساكنهم في بلاد قریش ، أى فى الاقليم المصرى الذى تسكنه قبيلة قریش فأخرجتها قریش بمساعدة عساكر الخلفاء الفاطميين ونزلوا فى بلاد أخميم أعلاها وأسفلها وروى ان بلى وبطونها كانت بهذه الديار ، وكانت جهينة بالأشمونين جيرانا بمصر كما هم بالحجاز فوقع بينهم واقع أدى الى دوام الفتنة ، فلما خرج العسكر لانجاد قریش على جهينة خافت بلى فانهزمت فى أعلى الصعيد الى أن أدبلىت لقریش ومكنت دار جهينة ثم حصل بينهم صلح جميعا .

٤ — كانت القبائل الأربع بلى وبنو هلال وجهينة وقریش تشترك فى مناطق السكنى . وقد عرفنا ما كان من أمر بلى وبنى هلال وجهينة . فأما قریش فانهم يتصلون بنسب الرسول عليه الصلاة والسلام . وقریش جماع نسب ليس بأب ولا أم ولا حاضن ولا خاضنة . والتقرش عند العرب التجمع . ومن بطون قریش الجعافرة الذين يتصلون بنسب مع أبى طالب . ومن الجافرة الزيانبة نسبة الى زينب بنت على ابن أبى طالب وكانوا بالصعيد الأعلى ابتداء من أسيوط . وقد أنف أمر الجعافرة كذلك من سلطنة المماليك الأتراك وثار على المعز أيبك

التركمانى ، وكاتب الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وجمع عربان مصر فخرجت اليه الأتراك وحاربوه وقبضوا عليه وسجنوه الاسكندرية حتى شنقه الظاهر بيبرس . وكانت مساكن الجعافرة من بحرى منفلوط الى سمالوط غربا وشرقا . ومن قريش أيضا العمريون الذين بأرض مصر يدعون كذبا أنهم ينتسبون لعمر وأنه لقي جماعة المقريزى أن الشريف محمد بن أسعد الجوانى النسابة أن العمرين الذين بأرض مصر يدعون كذبا أنهم ينتسبون لعمر وأنه لقي جماعة منهم وعرفهم كذبهم . ومن قريش كذلك بنو الزبير وهم من ولد عبد الله بن الزبير بن العوام . ومن هؤلاء بنو غنى وبلادهم البهنسا وما يليها ، وصار أكثرهم صاحب معاش وأهل زرع وفلاحة وماشية وضرع . ومن قريش أيضا بنو مخزوم وهم يزعمون أنهم من ولد خالد ابن الوليد ولكن المقريزى يقول أن علماء الأنساب اتفقوا على انقراض عقب خالد ، ثم يضيف المقريزى أن بنى مخزوم هم أكثر قريش بقية وبلادهم متاخمة لبلاد بنى الزبير . كما يقول المقريزى أن الدولة الفاطمية مرت وهم بأماكنهم لم يردع لهم سرب ولم يكدر لهم شرب . ومن قريش أيضا بنو سهم بنسباط مصر . وكانت دور بنى سهم حول جامع عمرو بن العاص من النسطاط الى أن دثرت .

وكان بصعيد مصر من القرشين أولاد الكنز وكانوا ينزلون اليمامة وقدموا أرض مصر فى خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومائتين فى عدد كثير وانتشروا فى النواحي ونزل طائفة منهم بأعلى الصعيد وسكنوا بيوت الشعر فى براريها الجنوبية وأوديتها ، وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية فى وقت حتى أخربوها فقامت ربيعة فى منعهم من ذلك حتى كفوهم ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب العلاقى فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة واختطوا قرية تعرف بالناس وحفروا بها آبارا .

وكانت عيذاب لبني يونس من ربيعة ملكوها عند قدومهم من اليمامة ، فجرى بينهم وبين بني بشر حروب انهزموا فيها ومضوا من عيذاب والى الحجاز . ويرجع نسب بني بشر الى مسروق بن معدى كرب ويستمر النسب الى نزار بن معد بن عدنان واليهم ينسب كنز الدولة حامى أسوان الذى نزل بأسوان وانشأ مكانه المعروف بساقية شعبان ، ولم يزل رئيسا على ربيعة حتى مات فقام برياستهم بعده ابنه أبوالمكارم الذى طفر بأبى ركة الخارج على الحاكم بأمر الله وفيض عليه ، فأكرمه الحاكم اكراما عظيما ولقبه كنز الدولة ، وهو أول من لقب بذلك منهم ولم تزل الامارة فيهم وكلهم يعرفون بكنز الدولة حتى كان آخرهم كنز الدولة الذى قتله الملك العادل أبو بكر بن أيوب فى سابع صفر سنة ٥٧٠ هـ عندما حالف على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وجمع لحربه وقتل أخاه أيا الهيجا السمين ، ودعا الأمير داود بن العاضد، وكان قتله عند مدينة طود بعد حروب شديدة .

٥ — كنانة : هم بنو كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ولم تمكنهم من التعدية الى بلادها عند قدومهم من بادية الحجاز الا بمراسلة بنى ابراهيم بن محمد . وكان مع كنانة جماعة من أخلاط العرب دخلت فى كنفها وبنو الليث منهم ، وهم سكان ساقية قلته وباقيهم فيما يليها .

٦ — لم تكن القبائل المهاجرة من القرشيين فحسب ، بل شملت كذلك بعض قبائل الأنصار من المدينة ويقول المقرئى « الأنصار قبيل عظيم من قبائل الأزدوهم الأوس والخزرج الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن الأنصار بأرض مصر بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم بحرى منفلوط .

وكان بمصر كذلك بعض قبائل عوف فى بلاد الصعيد وفى الفيوم وفى البحيرة وكانوا يمتدون غربا الى برقة وبلاد المغرب .

وكذلك بمصر فزارة قيس جماعة منهم بالصعيد وجماعة بضواحي القاهرة في قليب وما حولها وبهم عرفت البلد المسماة بخراب فزارة .

٧ — القبائل الحامية : لم تكن الهجرة الى مصر مقصورة على الساميين بل شملت القبائل العربية الحامية كذلك ، ومن هؤلاء قبيلة لواته الذين ينسبون الى لواته بن بربر الذين ينتهى نسبه الى قيس عيلان . وقيل ان أم بربر يهودية ، وقيل بل البربر من ولد قبط بن ققط أى أنهم مصريون ، وقيل أنهم أبناء افرقس بن قيس الذى افتتح افريقية فسميت باسمه ، وأن ملكها جرجر قال لهم ما أكثر بربرتكم فسموا بعدها البرابر . ويقال ان لواته من القبط . ومنهم بنو يبار ، وهم فرقتان فرقة بالبهنساوية وفرقة بالجيزية ، فالتى بالبهنساوية بنو محمد وبنو على وبنو نزار ومنهم معاغة ولهم سمالوط الى الساقية ، وأما فرقة الجيزية فهم بنو مجدول وسقارة . ويوجد في المنوفية بعض قبائل لواته .

وتتبع لواته كذلك هواره نسبة الى هوار بن المشى ويقال انه كان من أجناد مصر الذين دخلوا افريقية فقال لعلامه أين نحن ؟ قال بافريقية فقال تهورنا « والتهور الحق » ، فنزل على قوم من زناته فتزوج منهم وكثر نسله منهم الهواريون . وينسب الهواره الى يعرب بن قحطان ، كما ينسبون الى جالوت بن مصرايم بن حام بن نوح ، وقيل هواره من ولد قبط بن حام بن نوح ، أى أن النسب الغالب عليهم أنهم حاميون وليسوا ساميين . ويقال أن لواته تنتمى الى جالوت بن بربر بن قبط بن مصر بن حام بن نوح . وكان جالوت يعرف باسم كاهن بن جالوت وأنه أبو البربر ، وأن من أولاد جالوت هذا تركوت الذى من نسله المثمون سكان قلب الصحراء الكبرى ، وكذلك من أولاد جالوت هذا صنهاجة ومن نسله المثلثون كذلك . ويزعم هواره أنهم من البربر القدم وأن لواته كانوا منهم وفارقوا ديارهم وصاروا الى

برقة وغيرها . وتزعم هواره أنها من قوم من أهل اليمن . وفي رأى
المقرئزى أن هواره تنسب الى حام بن نوح . ويقول أنها تتناسب
بطونها كما تتناسب العرب ، وأصل ديارهم من آخر عمل سرت الى
اطرايلسى ثم قدم منهم طوايف الى أرض مصر ونزلوا بلاد البحيرة
وملكوها من قبل السلطان . وأن هواره التى يبلاد الصعيد انزلهم
الظاهر برقوق وذلك أنه أقطع اسماعيل بن مازن منهم ناحية جرجا
وكانت خرابا فعمرها وأنهم اكثروا من زراعة النواحي وأقاموا دواليب
السكر واعتصاره .

ومن القبائل الحامية كذلك قبيلة لخم وهم من عرب الجنوب ،
أى عرب حاميون وكانت لخم بصعيد مصر كذلك وينتهى نسبها الى
يعرب بن قحطان .

وفي لخم بطون كثيرة بالبر الشرقى من أرض مصر ومنهم بنو مر
وبنو مليح وبنو بنهان وبنو عبس وديارهم من طارف بيا الى منحدر
دير الجميزة فى البر الشرقى ، ثم من دير الجميزة الى ترعة صول ثم
من مسجد موسى الى اسكر وبلاد أتفيح وحلوان وطره .

وبالبحيرة والغربية طوائف من مزاته وبقليوب طوائف من فزارة .
ومنهم بنو تفاية ودارهم أطراف الشرقية ، وبالمنوفية فرقة من لواته
ومن مزاته ومن زنارة ومن هواره . وفى الطينة وهى طينة تنيس ،
عرب كانوا بعمل تنيس يقال لهم بنو عذر وينتهى نسبه الى همدان .
ويقول المقرئزى ان هؤلاء النفر الذين بالطينة قوم لاخلق لهم ولا
ذمام .

حرام : هم بنو حرام احدى بطنى جذام ومنهم أفخاذ وعشائر وقليل
فى عرب مصر من يعرفها ومن هم من الأنصار ، ومن قبائلهم بنو صبرة

التي كان اليهم درك بركة الحجاج . ويقال ان حرام القاطنة بمصر من
الخزرج . وكان منهم مشايخ بلاد وحولة وقضاة وفقهاء .

وفي الدقهلية والمرتاحية عرب يدعون الحماسة ، وقوم ينسبون الى
قريش وهم نفر من بنى عذرة وهم بنو كنانة بن عذرة .

٨ — بنو سليم : هم من قيس ، وينتسبون الى قيس عيلان ،
واليه يرجع كل سلمى . وكان نزول سليم وعدة قبائل من قيس في أرض
مصر سنة ١٠٩ هـ ، وأمير مصر اذ ذاك الوليد بن رفاعه . وقصة نزولهم
بمصر أن عبيد الله بن الحيجاب بنى سلو عامل هشام بن عبد الملك على
خراج مصر وفد على هشام وسأله أن ينقل اليها من قيس أبياتا فأذن
له هشام في الحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الى مصر على أن
لا ينزلوا بالفسطاط . ففرض لهم ابن الحيجاب وقدم بهم فأنزلهم
الحوف الشرقى وفرقهم فيه . وفي رواية أخرى عن الهيثم بن عدي قال
حدثني غير واحد أن عبيد الله بن الحيجاب لما ولاء هشام مصر قال
ما أرى لقيس حظا فيها الا لناس من جديلة وهم منهم وعدوان فكتب
الى هشام أن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قد شرف هذا الحي من قيس
ونعشهم ورفع من ذكرهم ، واني قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظا
الا أبياتا من فهم ، ومنها كور ليس فيها أحد وليس يضر بأهلها. نزولهم
معهم ، ولا يكسر ذلك خراجا وهي بليس فان رأى أمير المؤمنين أن
ينزلها هذا الحي من قيس فليفعل . فكتب اليه هشام أنت ورأيك
« فبعث الى البادية فقدم عليه أبياتا كثيرة من قيس فأنزلهم بليس .
وأمرهم بالزرع ونظر الى الصدقة من العشور فصرفها لهم ، فاشتروا
ابلا فكانوا يحملون الطعام الى القلزم فكان الرجل يصيب في الشهر
العشرة دنانير وأكثر . ثم أمرهم باشتراء الخيول ... الى آخر الرواية
وظلوا يتزايدون حتى بلغ عددهم ٥٢٠٠ ما بين صغير وكبير . ويقول
المقرئى ان في هذه القبيلة — قبيلة سليم — بطون وأفخاذ وعشائر ..

وقد امتدت مساكنهم الى برقة بما يلي مصر وكانت في عالية نجد
بالقرب من خيبر ومنها حرة بنى سليم وحره النار بين وأدى القرى
وتيماء ثم تحولوا الى مصر وإفريقية ولم يبق لهم عدد ولا بقية ببلادهم
وصار لهم بإفريقية عدد عظيم . ومن بنى سليم ما كان ينزل بين قابس
وبرقة ومنهم من ينزل بين طرابلس وقابس ، ومنهم ما ينزل بين قابس
وبلد العناب ومنهم من ينزل ما بين السدرة من برقة الى حدود
الاسكندرية ومنهم من يسكن منطقة اجدابية . وكذلك يضيف المقرئ
أنهم استولوا على اقليم طويل خربت مدنه وصارت ولايته لأشياخهم
وتحت أيديهم خلق من البربر .

وفيما بين الاسكندرية والعقبة الكبرى (السلوم) جماعة من بنى
سليم ، ثم : العقبة الكبرى وسوسة جماعة أخرى منهم وكذلك بين
سوسة وبين السورة وهما آخر حدود مصر ومسافتها من الاسكندرية
نحو شبر بسير القوافل .

ومن هذا التلخيص لما ذكره المقرئ عن الأعراب بأرض مصر
نخرج بالنتائج الآتية :

١ — لم يكن عدد العرب في مصر قليلا بالنسبة لعدد السكان ،
وبالتالى لم تكن نسبة الدماء العربية التى دخلت في تركيب المصريين
قليلة .

٢ — شملت الهجرة العربية الى مصر قبائل من أجزاء متفرقة من
شبه الجزيرة من جنوبها (قحطان) ومن وسطها (قريش) و (الأنصار) .

٣ — لم تكن الهجرة العربية مقصورة على المهاجرين من أهل مكة
بل شملت كذلك الأنصار من أهل المدينة .

٤ — كانت بمصر قبل الفتح العربى قبائل عربية جنوبية (لواته)
وهم من الحاميين الذين أخذوا اسم البربر في شمال إفريقية ، ولواته

شعبة من هجرة عربية جنوبية عامة دخلت من باب المندب وانتشرت في كل شمال افريقية وقد عنى المقرئى بتحديد صلتهم بالبربر من ناحية وبالطوارق (الملثمين) من ناحية أخرى .

٥ — ساهم العرب في الحياة المصرية فكان من بعضهم مشايخ البلد وخنراؤها (جذام) واحترف بعضهم الزراعة (جذام وبعض القرسيين) وأما القبائل التى اشتغلت بالصناعة فأصلها جنوبى (الهوارة) .

٦ — ظلت القبائل العربية متصلة بالأحداث السياسية بعد عصر الولاة العرب (سنبس) وربيعه وغيرها .

٧ — ان التحول الثقافى العظيم في شمال افريقية الى العربية له أساس قوى من الدم ، وبالتالي يكون تجدد الدعوة الى القومية العربية له أساسه المتين من قرابة الدم .

٨ — تم تعريب شمال افريقية بجرعتين عريبتين قويتين ، جرعة الفتح في القرن السابع الميلادى ثم جرعة القرون من الحادى عشر الى الثالث عشر . والذين حرموا من الجرعة الثانية ضعفت عروبتهم .

ابراهيم أحمد رزقانه

أحوال مصر الاقتصادية والاجتماعية كما صورتها المقرئ

الدكتور محمد محمود الصياد

بين الجغرافية والتاريخ :

ولد المقرئ بالقاهرة المعزية سنة ٧٦٦ هـ وتوفي بها سنة ٨٤٥ هـ (١٣٦٤ — ١٤٤١ م) فهو قد عاش شطرا من حياته (٢٦ سنة) في أواخر عصر المماليك البحرية ، وعاش معظم حياته (٥١ سنة) في عهد المماليك البرجية .

* وكان نمط الموسوعات هو النمط الغالب على تأليف العصر . نشهد ذلك فيما كتب النويري (ت ٧٣٢ هـ — ١٣٣٣ م) وابن فضل الله العمري (ت ٧٤٨ هـ — ١٣٤٨ م) والقلقشندي (ت ٨٢١ هـ — ١٤١٨ م) وغيرهم من العلماء الأجلاء الذين حفل العصر بمؤلفاتهم الموسوعية الضخمة . ولكن المقرئ بلغ القمة بنمط آخر هو نمط الخطط . ولا تقول أن الرجل هو (أول من ابتكر هذا الأسلوب من أساليب التاريخ ، ولا هو آخر المؤلفين الذين نهجوا هذا النهج ، ولكنه كان بلا شك أعظم كتاب الخطط في تاريخ مصر الإسلامية .

* وكتابة الخطط فن من فنون التاريخ ، ولكننا نحتفل بها نحن الجغرافيين إذ نجد فيها مصدرا مهما للدراسات الجغرافية الطبوغرافية والاقتصادية والاجتماعية . فالتاريخ ميدانه الزمان ، والجغرافية موضوعها المكان ، والخطط في دراستها تجمع بين الناحيتين ، بل هي تتخذ المكان أساسا لدراسة الزمان ، ويشير الى ذلك المقرئ في

مقدمة خطته التى سماها « المواعظ والاعتبار بفكر الخطط والآثار »
فيقول : « لما فحصت عن أخبار مصر وجدتها مختلطة متفرقة ، فلم
ينتهى لى اذ جمعتها أن أجعل وصفها مرتبا على السنين لعدم ضبط
وقت كل حادثة لا سيما فى الأعصر الخالية ، ولا أن أضعها على أسماء
الناس لعل أخرى تظهر عند تصفح هذا التأليف . فلهذا فرقتهما فى ذكر
الخطط والآثار ، فاحتوى كل فصل منها على ما يلائمه ويشاكلة ،
وصار بهذا الاعتبار قد جمع ما تفرق وتبدد من أخبار مصر » .

✽ والمقرئ من أعلام مؤرخى مصر الاسلامية ، ولكن فهمه
للجغرافية فهم قاصر ، والفصول الجغرافية القصار التى افتتح بها خطته
لتكون تمهيدا للدراسة الطبوغرافية التاريخية لمصر لا تدل على عقلية
جغرافية ممتازة ، وليست سوى ترديد لما قال به القدماء عن هيئة
الأفلاك ، وصورة الأرض وموضوع الأقاليم منها ، ومحل مصر
وموضعها من الأقاليم السبعة . ولكن المقرئ يعنى المصادر الجغرافية
العربية القديمة عناية فائقة ، وقد حصر ر . جست مارجع اليه المقرئ
منها فوجدها تربو على الثلاثين مؤلفا مما يدل على أن المقرئ وان لم
يكن جغرافيا أصيلا فهو كاتب يتقضى الحقائق فى مصادرها الأصيلة
المتيسرة .

✽ ولا يعيب المقرئ سطحته الجغرافية فقد استغرق التاريخ
كل اهتمامه ، فلم يترك كعادة غالبية العلماء مصنفا فى ميدان آخر غير
التاريخ على كثرة ما ألف من كتب ، وقد يجوز لنا أن نستثنى من
هذا كتابه « البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب » فكثير
من فصوله يمكن أن يدخل فى نطاق الجغرافية . ولعل المجهود الوحيد
الذى بذله فى سبيل الجغرافية الخالصة ، وتعديله وتنقيحه للمسودة
الأولى للمعجم الجغرافى الذى وضعه أبو عبد الله الحميرى المغربى
وسماه « الروض المعطار فى خير الأقطار » وزّته على حروف المعجم

فكان آخر تلك السلسلة من المعاجم الجغرافية العربية التي بلغت الأوج في « معجم البلدان » لياقوت الحموى .

✽ والمقريزى كاتب ذو منهج يفصله فى مقدمة خطه اذ يتحدث عن الرؤوس الثمانية وهى الفرض ، والعنوان والمنفعة ، والمرتبة ، وصحة الكتاب ، ومن أى صناعة هو ، وكم فيه من أجزاء ، وأى أنحاء التعاليم المستعملة فيه ، وليس من غرضنا هنا أن نتحدث عن نقد هذا المنهج ولا عن مدى التزام المقريزى به فى كتابه ، بيد أننا لا نفوتنا أن نشير الى الناحية الأخيرة وهى « أى أنحاء التعاليم المستعملة فيه » بلغة المقريزى ، أو مصادر الدراسة كما نقول فى مصلحنا الحديث ، فهذه المصادر عند المقريزى هى النقل من الكتب المصنفة فى العلوم ، والرواية عن أدرك من مشيخة العلم وجلة الناس ، ثم المشاهدة لما عاين ورأى ، وهو بهذا يستوفى منابع البحث جميعا ، مما يجعل كتاباته مصدرا يمكن الاعتماد عليه .

✽ ولهذا فكتابات المقريزى التاريخية مصدر له وزنه فى دراسة الجغرافية التاريخية لمصر لا فى عصره فحسب ، بل وفى العصر الاسلامى كله حتى أيام المماليك . وكانت مصر ولا تزال بلادا زراعية ، غالبية سكانها من الفلاحين الذين يحصلون على معاشهم من الأرض واستغلالها ، والنيل هو الذى خلق عليها هذه الصفة البارزة ، فتربتها الخصبة من صنعه ، وهو شريان الحياة فيها بعد أن ضنت عليها هذه السماء بالمطر ، فكيف صور المقريزى هذه الحياة الزراعية وكيف كشف فى عباراته عن خصائصها ومميزاتها ؟

نظم الرى :

كانت مصر التى عاش فيها المقريزى كما كانت فى العهود التى سبقتة بلادا تسيطر الزراعة على كل حياتها الاقتصادية . وكان النيل ونظام فيضانه قد ألهم المصريين أسلوبا فريدا للرعى هو « رى الحياض »

وفيه يترك ماء النيل في فصل الفيضان ليغطي أرض الحياض بعمق متر ونصف في المتوسط ، ولمدة خمسة وأربعين يوما ، حتى اذا ما انخفض منسوب الماء في النهر صرفت اليه مياه الحياض بعد أن تكون الأرض قد أخذت منها ما يكفيها .

* وكانت أراضي الصعيد فيما عدا الفيوم مقسمة الى أحواض بسدود ترابية تمتد بين جسور النيل وحافة الصحراء ، وكانت الأجزاء الجنوبية من الدلتا يشملها هذا النظام كذلك . وكانت هذه الجسور فيما يروى المقرئى « على قسمين : سلطانية وبلدية ، فالجسور السلطانية هى العامة النفع فى حفظ النيل على البلاد كافة الى حين يستغنى عنه .. ويستخرج برسم عملها مال بأيدي المستخدمين من الديوان ويصرف عليها ، ويفضل من المال بقية تحمل الى بيت المال » فهى اذن من المنافع العامة الموكول أمرها للحكومة المركزية . ولكن حدث فى أيام المقرئى وعلى عهد الناصر فرج بن الظاهر برقوق أن أخذت الدولة تجبى الأموال الكثيرة بدعوى حماية الجسور العامة « ثم لا تصرف منها شيئا البتة بل ترفعها الى السلطان ويتفرق كثير منها بأيدي الأعوان ، ويسخر أهل البلاد فى عمج الجسور فيجىء الخل » وكان هذا فى نظر المقرئى سببا من أسباب الخراب الذى تعرضت له البلاد .

* أما الجسور البلدية فهى التى « يخص نفعا ناحية دون ناحية ، ويتولى اقامتها المقطعون والفلاحون من أصل مال الناحية » أى أن نفقات صيانة هذه الجسور المحلية كانت أيضا على حساب الخزينة العامة ، اذ كانت تخصم من الخراج الذى يتعين على أهل الناحية دفعه ، وكانت « العادة أن المقطع اذا انفصل وكان قد اتفق شيئا من مال اقطاعه فى اقامة جسر لأجل عمارة السنة التى انتقل الاقطاع عنه

فيها ، فان له أن يستعيد من المقطع الثاني نظير ما أنفقه من مال سنته في عمارة سنة غيره .

* وكانت الزراعة مقصورة على شريط ضيق من الأرض يمتد على طول النيل والترع التي تخرج منه ومن فروعها « فالنيل اذا انتهت زيادته فتحت منه خلجان وترع يتخرق الماء فيها يمينا وشمالا الى البلاد البعيدة عن مجرى النيل وأكثر الخلجان والترع والجسور والأخوار بالوجه البحرى . وأما الوجه القبلى وهو بلاد الصعيد فان ذلك قليل فيه » . وكانت أهم الترع هى خليج الشموم طناح وخليج سردوس وخليج الاسكندرية وخليج دمياط وبحر أبى المنجا الذى حفره الأفضل ابن بدر الدين الجمالى لرى أراضى البلاد الشرقية والذى عرف باسم أبى المنجا بن شعيا الذى كان على رأس ادارة الزراعة .

* وكانت الزراعة تتوقف على حالة الفيضان ، فلو جاء عاليا عن الحد أغرق الأرض وأتلف الزرع ، ولو جاء منخفضا استحال رى الحياض وأصبحت البلاد بالقحط . ويرى المقرئى : « أن أتم الزيادات كلها ، العامة النفع للبلد كله سبعة عشر ذراعا ، وفى ذلك كفايتها ورى جميع أراضيتها واذا زاد عن ذلك وبلغ ثمانية عشر ذراعا وغلقها استبحر من أرض مصر الربع ، وفى ذلك ضرر لبعض الضياع . واذا كانت الزيادة على ثمانية عشر ذراعا كانت العاقبة فى انصرافه حدوث وباء » .

الحياة الزراعية :

وتحت هذا النظام كانت أرض مصر لا تزرع الا بمحصول واحد فى السنة من المحصولات الشتوية ، وتبقى بعد ذلك دون زراعة حتى يأتى الفيضان الجديد . ولكن الدلتا كانت تمتاز عن الصعيد بما يزرع فيها من الغلات الصيفية ، اذ كان من الممكن رفع الماء اللازم لهذه الغلات من فروع النيل والترع الخارجة منه بالسواقي والشواذيف ، ذلك لأن مستوى ماء التحريق فى الدلتا أقرب لمستوى الأرض الزراعية

منه في الصعيد . وكانت الأراضي التي تشغلها الزراعات الصيفية تحاط بجسور من التراب لتحميها من مياه الفيضان الذي يبدأ ومحصولات الصيف لم تنضج بعد .

* معنى هذا أن مصر كان بها نوعان من الزراعات على عهد المقرئى : الزراعات الشتوية وهى أهم النوعين ، والزراعات الصيفية فى مناطق محدودة من الدلتا . وان معظم الغلات التى تزرع من الغلات الغذائية ، وقليل منها كان يزرع لخدمة الصناعة أو التجارة ولكن بقدر محدود . وكانت الحبوب الغذائية تشمل القمح والشعير ، ويظهر أن الذرة بنوعها الشامية والرفيعة لم تكن معروفة فلم يذكر عنها المقرئى شيئاً . وكذلك الأرز لا يشير إليه المقرئى فى خطته ، ولكنه كان من الغلات التى تزرع فى الفيوم كما يروى المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » . وكما يروى المقرئى نفسه فى « اغائة الأمة بكشف الغمة .» اذ يذكر أن الأرز من الغلات التى ارتفعت أسعارها فى أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى . ولعل الذى دعا المقرئى الى اغفال ذكر الأرز فى خطته أنه كان يزرع فى مساحات محدودة من مناطق معينة ، وهذا هو المنتظر من غاة صيفية كالأرز تتطلب الماء الوفير فى وقت تنخفض فيه مياه النيل .

* وكان من الغلات الغذائية الأخرى الفول والعدس والحمص والبصل والتوم وكان القرط وهو نوع من البرسيم يزرع علقاً للدواب . كما كانت هناك غلات تزرع بقصد الحصول على الزيت كالسمسم والكتان والخس ، وغلات صناعية أخرى كالقطن وقصب السكر . ولم تقم صناعة السكر على القصب كما هو الآن وان تكن قد قامت عليه صناعة القند . وكانت هناك غلة لا تزرع الآن وهى النيلة التى كانت تدخل فى أعمال الصباغة .

* وكانت وحدة القياس في مصر هي الفدان « وهو عبارة عن أربعمائه قصبة حاكمية طولا في عرض قصبة كما يروى المقرئزي أو ٤٠٠ قصبة مربعة كما نقول بلغة اليوم » . والقصبة ستة أذرع وثلاثا ذراع بذراع القماش وخمسة أذرع بذراع التجار تقريبا « فإذا حولنا هذه المقاييس الى مصطلحاتنا الحديثة فإن ذراع القماش طولها ٥٨ سم ومعنى هذا أن القصبة الزراعية الحكامية طولها ٣٣٨٦ مترا وعلى هذا الأساس تكون مساحة الفدان ٤٩٦٦ مترا مربعا تقريبا بدلا من ٤٢٠٠ م^٢ كما هو شائع اليوم .

* ويتحدث المقرئزي عن مركز الغلات المختلفة في الدورة الزراعية ، وعن كمية التقاوى اللازمة لزراعة الفدان ، وعن محصول الفدان من كل غلة ، وكنا ننتظر منه وهو المغرم بالاحصائيات أن يذكر لنا شيئا عن المساحة المزروعة من كل غلة على وجه التقريب ، ولكنه أمر لم يلتفت اليه المقرئزي . كما كنا ننتظر منه أن يحدثنا عن الآلات التي يستخدمها الفلاح في أعماله الزراعية وهي ناحية لو أهملتم بها لكانت الصورة التي يعطيها عن الحياة الزراعية في عصره .

الغلات الغذائية :

كان القمح أهم غلات مصر فيما يبدو ، وكان يزرع في كل الجهات ، إلا أن صلاحية الأقاليم لزراعته كانت تتفاوت ، ويفهم من كلام المقرئزي أن الصعيد كان أكثر صلاحية لزراعته من الدلتا وكان يزرع في الصعيد على أثر القمح لكثرة الطرح .. وربما زرع على أثر الكتان والشعير .. وأصلح ما زرع القمح أثر الباقي والشرافي .. وموعد زراعته من نصف شهر بابة الى آخر هاتور ، وقد يتأخر الى شهر كيهك .. ويختلف ما يخرج من فدان القمح بحسب الأراضي فيرمى من أردبين الى عشرين أردبا .. وكانت الضريبة المقررة على أراضي القمح هي ثلاثة أردب للفدان في الصعيد ثم انقصت الى أردبين ونصف .

« أما أسفل الأرض فيؤخذ عنها عين لا غلة » أى أن ضريبتها كانت ضريبة نقدية .

* ويزرع الشعير فى أثر القمح وغيره . وكان ينتشر من أقصى جنوب البلاد فى أسوان حتى أقصى شمالها . وفى مثل هذا المدى الواسع تختلف ظروف الإنتاج وهذه بدورها تؤثر فى طريقة زراعة الشعير وإنتاجه .

* ويزرع الفول « فى الحرث أثر البرايب ويؤكل وهو أخضر فى أشهر كيهك .. ويتحصل من فدان ما بين عشرين أردبا الى ما دون ذلك » وتنحدر زراعته فى الصعيد وبقدر ما تنحدر الأرض فى الدلتا يقل محصوله وبذلك يصبح غلة قليلة الشيوخ . ويظهر أن المحصول كان أكثر من حاجة البلاد . ولهذا كان يصدر جزء منه الى بلاد العرب عن طريق القصير وإلى بلاد الشام عن طريق موانئ البحر المتوسط .

* وكان العدس من غلات الصعيد دون الدلتا ، وهو لا يزال كذلك الى اليوم ، ولا تتطلب زراعته سوى القليل من الأعمال ، وتختلف غلة الفدان باختلاف السنين فقد يرتفع الى عشرين أردبا أو ينخفض الى ما دون ذلك وكانت أكثر جهات زراعته فى نواحي المنيا وأسيوط .

* وكان البصل من الغلات المهمة ، ويزرع بطريقة البذر أو الشتل . أما الذى يزرع بذرا فتكون زراعته فى هاتور الى نصف كيهك ويحتاج الفدان الى ما يتراوح بين نصف وربع وية من البذور . وأما الذى يزرع شتلا فتتأخر زراعته الى نحو العاشر من طوبة ، وهو أوفر غلة اذ يعطى الفدان منه نحو عشرة أراذب .

* وكانت تزرع مساحات واسعة من نباتات علف الماشية والخيول . فكان البرسيم يزرع فى الدلتا ، ويزرع القوط فى الصعيد

عند أخذ ماء النيل في النقصان . « ولا ينبغي تأخير زراعة الى أوان
الرياح الجنوبية التي يقال لها المريسية ، وأول ما يزرع في شهر بابة
وربما رزح بعد النوروز » . وفي الصعيد والفيوم كان يزرع نوع
ثالث من العلف هو الجلبان « ولا يزرع الا في أرق الأراضي حرثا من
الأرض العالية ، ويزرق تلويقا في الأرض الخرس » .

النباتات الزيتية :

أما النباتات الزيتية فكان يزرع منها السلجم (اللفت) في اقليمى
أسيوط وجرجا ، ويسه تخرج من بذرة الزيت ، وكان يحل محله الخس
في أعالي الصعيد . ولكن السمس والكتان كانا أهم الغلات الزيتية .
والأول من الغلات الصيفية اذ يزرع في برمودة ويدرك في أييب
ومسرى . أما الآخر فغلة شتوية يزرع في هاتور ويدرك في برمودة .
ولما كان الكتان من الغلات المجهدة للتربة « فهو يحتاج أن يسبخ
بتراب سباخ » وكان يزرع لغرضين هما الحصول على أليافه والحصول
على بذره الذي يستخرج منه الزيت الحار . وكان محصول الفدان
ثلاثين شدة من الألياف الى ما دون ذلك ، ونحو ستة أراذب من
البذور . وكانت الضرائب تحصل عنه نقدا لا غلة ، فكانت قطعة
الفدان تتراوح بين خمسة دنائير وثلاثة دنائير .

الغلات الصناعية :

وكان القطن معروفا ولكنه يزرع في مساحات محدودة ، وكان
موعد زراعته يتأخر عن الموعد الذي يزرع فيه حاليا ، فهو كما يقول
المقريزى : « يزرع في برمودة ويدرك في توت » أى يزرع في مايو
ويجنى في نوفمبر . وهو الآن يزرع في فبراير ومارس ويجنى في
أغسطس . ولا شك في أنه كان يتطلب كثيرا من النفقات فهو يزرع
في وقت يكون ماء النيل ما زال منخفضا ولا بد من رفع المياه اللازمة
لرى النبات الذي يحتاج لكميات كبيرة من الماء في المرحلة الأولى من

مراحل نموه . ويدركه الفيضان وهو لا يزال في الأرض ولذلك كان من الضروري حماية حقوله بالجسور . وأغلب الظن أن التكاليف الباهظة هي التي حالت دون التوسع في زراعته ، ولعلها هي التي دعت زراعته الى ترك شجيراتہ في الأرض بضعة سنين .

✽ وكان القصب كغلة صيفية أوسع من القطن انتشارا ، ويتحدث التريزى عن كيفية اعداد الأرض له ، وغرس عقله ، وطريقة سقيه ، وهي كلها لا تكاد تختلف عما هو متبع في زراعة القصب الآن في مناطقه بالسعيد . وهو « يزرع في برمات في أثر الباق » ويتطلب أن تحرث الأرض حرثا جيدا قبل غرسه اذ « تبرش أرضه سبع سكك » والبرش هو الحرث بلغة العصر . ويجوز اذا جاء الفيضان مبكرا ، « فأنجبه ما تكامل له ثلاث غرقات قبل انقضاء شهر بشنس » أى قبل انتهاء الأسبوع الأول من يونيه . وهو يحتاج للرى الصناعى بالقواديس ، ترفع الماء من مجرى النهر أو ترفعه من الآبار . ويبقى في الأرض سنتين أو ثلاثا . وكان محصول السنة الأولى يسمى « الرأس » وهو الذى نسميه الآن « قصب غرس » ، أما ما تلى ذلك من محصول فهو « الخلفة » ولا تزال هذه التسمية شائعة حتى اليوم . وكانت تقوم عليه صناعة القند . والقند عسل قصب السكر اذا جمد ، وهو ما تعرفه بالسكر الأحمر . وكانت معاصره تنتشر في جهات زراعته بالصعيد . « وقنود الخلفة أجود غالبا من قنود الرأس » بسبب تركيز العصارة في أعواد القصب مما يرفع نسبة المادة السكرية فيها .

✽ وكانت النيلة من الغلات الصيفية المعروفة . وأغلب الظن بأنها لم تكن مما يزرع صغار الفلاحين فهي تتطلب كثيرا من النفقات في زراعتها ثم في اعدادها بعد ذلك للسوق .

✽ وبجانب هذه الغلات الرئيسية كانت تزرع غلات أخرى ثانوية

كالقلقاس والباذنجان. وغيرهما من الخضر . وكان القلقاس « يزرع عادة مع القصب » أى أنه كان يزرع فى الصعيد ، ومعنى هذا أن توزيعه الأقليمى قد تغير اليوم عما كان عليه فى أيام المقرئزى ، اذ أصبحت الدلتا وبخاصة محافظة المنوفية هى أهم جهات زراعته فى الوقت الحاضر .

* كذلك كانت تزرع مصر بعض أنواع الفاكهة كالموز والكروم والتفاح والخوخ والمشمس والنبق والتوت . وكان الموز على صنفين شتوى وصيفى كما كان يزرع من الزهور الياسمين والنجس والورد.

تصنيف الأرض :

وتفهم من كتابات المقرئزى أن الأرض الزراعية فى مصر كانت تصنف أصنافا على أسس مختلفة . ولا يزال كثير من التصنيف الذى ذكره المقرئزى شائعا حتى اليوم . فكانت الأرض تصنف على أساس ما كان فيها من زراعة سابقة الى « الباق » وهو أثر القرط والمقاتى . ولما كانت هذه الغلات مما يثبت الأزوت فى التربة فان زراعتها تكسب الأرض خصوبة ولذلك « فهى أعلى الأرض قيمة وأوفاهها سعرا » ثم رى الشراقى « وتلى الباق فى جدتها وهى « الأرض التى ظمئت فى الخالية فلما رويت فى الأنية وصارت مستريحة من الزرع ، وزرعت أنجب زرعها ، والواقع أن فترة الشراقى فضلا عن أنها تريح التربة ولا تنهك عناصرها الغذائية ، فانها تؤدى الى تشقق الأرض شقوقا عميقة وهذا يعرض باطن التربة للتهوية والتشميس ، كما تساعد حرارة الشمس على تصاعد الاملاح التى ترسبت فى التربة الى السطح بفعل الجاذبية الشعرية ، فاذا مارويت غسل الماء الأرض وخلصها من أملاحها.

* و « البرايب » وهى أثر القمح والشعير وسعرها دون سعر الياق ، فالقمح والشعير وان كانا من النباتات النجيلية يستفدان من

عناصر التربة القدر الكبير ولا يزال الفلاحون حتى يومنا هذا لا يزرعون القمح والشعير ، المساحة الواحدة عامين متتاليين حفظا لخصوبة التربة. فانه اذا زرعت « على أثر أحدهما فلم تنجب كنجاية الباق . والبرايب صالح لزراعة القرط والقطنى والمقاتى ، فان الأرض تستريح بزراعتها وتصير فى القابل أرض باق « ونستنتج من كلام المقريزى هذا أن الفلاح المصرى على عهده كان يعرف الدورة الزراعية ، فهو ينظم زراعة غلاته وفقا لدورة خاصة يستهدف من ورائها صيانة التربة ونجاة المحصول .

* ولا تزال هذه الاسماء متداولة حتى اليوم فى ريف مصر ، ولكن هناك مصطلحات أخرى قد اندثرت منها « السقماهية » وهو أثر الكتان فان « زرعت قمحا خسر » والواقع أن الكتان من أبكر الغلات الشتوية انهاكا للتربة ولهذا ينصرف عنه الفلاح ، فلا يزرع الا فى مناطق محدودة ولا بد من استخدام السماد فى زراعته تعويضا للأرض عما تفقده بالزراعة . و « الشتونية » وهو أثر ماروى وبار فى السنة الماضية وهو دون رى الشراقى . و « السلايح » وهو ماروى وبار، فحرث وتعطل ، وهو مثل رى الشراقى فى زرعه ، فان زرعه يكون ناجيا » . وكان السبب فى بوار النوعين فيما نعتقد أن الأرض لم يكن يصيبها من ماء الفيضان ما يكفيها ، ولم يكن الفلاح يعرف أن الأرض قد حصلت على كفايتها من الماء . فكان يزرع الأرض على أمل أن يكون قد أصابها الماء الكافى ، ثم تثبت الأيام عكس ذلك فتبور الأرض الى عام قابل وهذه هى « الشتونية » . فاذا توفرت له الامكانيات حرثها مرة أو مرتين فى فترة بوارها حتى تتم تهويتها وتشميسها ، فيعوضه وفرة محصولها فى العام التالى عن الخسائر التى لحقت به من بوارها فى العام السابق وهذه هى « السلايح » . وقد أدى تطور نظام الرى فى مصر الحديثة وما تبعه من توفير المياه الى أن أصبحت أراضى الحياض

تحصل على حاجتها من الماء ومن هنا اختفى المصطلحان الشتونية والسلايج من قاموس الفلاحين المحدثين .

✽ وقد تصنف الأرض على أساس ما يصيبها من ماء الفيضان ، فأراضى الحياض ليست كلها على مستوى واحد ، بل تشذ جهات منها عن المستوى العام بالانخفاض أو الارتفاع فإذا كانت الأرض منخفضة غمرها ماء الفيضان ثم لا يجد عنها منصرفا بسبب انخفاضها فيحل أوان انزراعة يغمرها وهذه هي « المستبحر » . وقد لا تصيب الأرض حاجتها من الماء أما لعلو سطحها عن المستوى العام أو لقصور النيل أو سد طريق الماء عنها أو غير ذلك وهذه هي « الشراقي » . وكلا النوعين صالح للزراعة من الناحية الميكانيكية ولكن يعطل استغلاله هذه العوامل الخارجية التي لا صلة لها بخصوبة التربة وطاقاتها الانتاجية .

✽ بيد أن هناك مناطق واسعة لم تكن تصلح من الناحية الكيميائية ، اذا يعطل استغلالها زيادة نسبة الاملاح في التربة وهي على نوعين : « الخرس » وهي « أرض فسدت بما استحکم فيها من موانع قبول الزرع » بنص عبارة المقریزی وهي الأرض الملحية التي تزيد نسبة كلوريد الصوديوم عن القدر المناسب وتظهر بصفة خاصة في القسم الشمالي من الدلتا ويمكن اصلاحها بالغسيل المستمر حتى تخلص من أملاحها . ثم « السباخ » ويعرفها المقریزی بأنها « أرض غلب عليها الملح حتى ملحت ، ولم ينتفع بها في زراعة الحبوب .. وربما زرعت ما لم يستحکم السباخ فيها بغير الحبوب » وهذه التربة القلوية التي يفسدها وجود كربونات الصوديوم بنسبة تزيد على ٥٠ر/ فاذا قلت النسبة عن ذلك فانها تصلح لنمو بعض أنواع النبات . وأعتقد أن هذا هو ما عناه المقریزی بقوله « ما لم يستحکم السباخ فيها » ولا تزال هذه التربة القلوية تعرف باسم السباخ في كثير من جهات مصر وبخاصة

في الوجه البحرى وان تكن قد شاعت لها ألسنة الفلاحين أسماء محلية مختلفة منها الشفص والجبص والقرموط وغير ذلك .

✽ ونظرا لتضاؤل الرقعة الزراعية للأسباب التي رواها المقرئى عن خراب مصر فقد أهملت مساحات واسعة من الأرض القابلة للزراعة فتمت بها النباتات الطبيعية من الحلفاء والقصب الهندى وغيرهما من الأعشاب . وان المصريين يصنفون الأرض على أساس وجود هذه النباتات أو خلوها منها الى أصناف منها « الوسخ » . وهى « كل أرض استحکم وسخها ولم يقدر الزارعون على ازاحتها كله بل حرثوا وزرعوا فيها فجاء زرعها مختلطا بالزحلقاء ونحوها » . ثم « الوسخ الغالب » وهى كل « أرض حصل فيها نبات شغلها عن قبول الزراعة ، ومنعت كثرته من زراعتها فصارت مراعى » وهذه هى أرض البرارى في شمال الدلتا التى استمر الجزء الأكبر منها على حاله حتى أواخر القرن التاسع عشر ، حينما بدىء في استصلاح أراضيها .

✽ من هذا العرض السريع نستطيع أن نخرج ببعض حقائق نميز الأحوال الزراعية على عهد المقرئى عن الأحوال في مصر المعاصرة منها :

١ — كان جزء صغير من الأراضي النيلية في مصر هو المزروع ، اذ كانت الزراعة والرى على سجيتهما ، ولم تكن هناك مشروعات قد أنيئت لضبط مياه النيل . ولم يذكر المقرئى مساحة الأرض التى كانت تزرع على أيامه . ولكننا نستطيع أن نقدر هذه المساحة على أساس ما يذكره عن عدد الفلاحين فهو يقدر أن عدد الفلاحين اللازمين لزراعة أرض مصر هو « ٤٨٠ ألف حراث » ... « فاذا أقيم بها هذا القدر من العمال تمت عمارتها وكمل خراجها » ولكن العدو كان موجودا في عهده هو ١٢٠ ألف مزارع منهم ٧٠ ألفا في الصعيد و ٥٠ ألفا في الدلتا . فاذا قدرنا أن الحراث يستطيع أن يقوم بخدمة خمسة

أفدنة فإن معنى هذا أن مساحة الأراضي الزراعية كانت نحو ٢٥ مليون فدان ، ولكن الذى كان يزرع منها فى عهد المقرئزى لا يزيد على ٦٠٠ ألف فدان بسبب ما عم مصر من الخراب الذى يشير المقرئزى الى شئ من أسبابه فى فقرات متناثرة فى كتاب الخطط وكان أهمها أهمال السياسة المائية وعدم العناية بشئون الجسور .

٢ — هذه المساحة على ضآلتها لم تكن تزرع كلها طول السنة بل كان يزرع منها فى الخريف أو الصيف ويزرع معظمها فى فصل الشتاء .

٣ — وكان الغالب على الزراعة المصرية هو زراعة الحبوب الغذائية وكانت تكفى الحاجة المحلية اذا جاء الفيضان مناسباً ، وربما تبنى منها فائض ويصدر الى الخارج .

المجتمع المصرى :

كانت هذه هى الأحوال الاقتصادية للمجتمع الزراعى المصرى الذى عاش فيه المقرئزى ، وهو مجتمع اقطاعى يوزع فيه السلطان الأرض على الأمراء والاجناد وكانت الاقطاعات أما بلادا يستغلها مقطعتها كيفما شاء أو تقودا يحصلها من بعض البلاد ، وكان المصريون أصحاب البلاد الشرعيون فلاحين يعملون لحساب أصحاب الاقطاع ويعيشون عيش الكفاف .

✽ وكانت أغذيتهم تختلف فى الصعيد عنها فى الوجه البحرى ، فأهل الصعيد يتغذون كثيرا بثمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ، و « أهل أسفل الأرض يتغذون كثيرا بالقلقاس والجلبان » وهم يكثرون من أكل السمك طريا ومالحا . وعند الفلاحين « نوع من الخبز يدعى كعكا يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها » ويشرب الجمهور من ماء النيل وبعضهم يشرب مياه الآبار .

❖ وقد أدى الفقر وتفشى الأوبئة ، وظلم الأمراء والجند ، واغارات العربان من الصحراء الى أن فقد المصريون الأمل في المستقبل فشاعت فيهم روح التواكل حتى أن المقرئى يذكر أن «من أخلاقهم عدم النظر في العواقب فلا نجدهم يدخرون عندهم زادا كما هي عادة غيرهم من سكان البلدان » . ولعمري كيف كان المقرئى ينتظر من المصريين أن يعملوا حسابا للأعداء في مجتمع يقول هو عنه « أنه قد تقلص فيه ظل العدل ، وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجير عن أنيابه وقلت المبالاة ، وذهب الحياء والخشية من الناس حتى فعل من شاء ما شاء » .

❖ كان المجتمع المصرى قد دب فيه الفساد ، وبدأت عوامل الانحلال تنخر في كيانه مما مهد للغزو العثمانى فى القرن التالى . وكان المقرئى نفسه يتوقع انهيار هذا المجتمع بعد أن آراه وقد تفشى فيه « الفقر ، والفاقة ، وقلة المال ، وخراب الضياع والقرى ، وتداعى الدور للسقوط ، ومشمول الخراب أكثر معمرى القاهرة ، واختلاف أهل الدولة وانقضاء عدتهم » وقد صدق حدس المقرئى فلم تمض ٧٦ سنة على وفاته حتى كانت مصر قد وقعت تحت سلطان العثمانيين .

❖ رحم الله الشيخ تقى الدين أحمد بن على المقرئى فقد كان دائما مواطنا مصرياً غيوراً أحب بلده فحرص على أن يكتب تاريخها وأن يسجل ما عن له عن أحوالها وظروف سكانها فترك لنا ذخيرة نرجع إليها ونستهدى بها لنأخذ من الماضى زادا لمستقبل نبيه ونهضة تقيم كيانه على أسس من الكفاية والعدل وحب الخير والسلام .

المحتوى

الموضوع	الصفحة
١ - مقدمة	بقلم الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ٣
٢ - أحمدية على المقریزی	للدكتور أحمد مصطفى زیادة ٥
٣ - تاریخ حياة المقریزی	للدكتور محمد مصطفى زیادة ١٣
٤ - مؤلفات المقریزی الصغيرة	للدكتور جمال الدین الشیال ٢٣
٥ - خطط المقریزی بین الأصالة والنقل	للأستاذ محمد عبد الله عنان ٣٩
٦ - العمارة والصناعة فی خطط المقریزی	للأستاذ حسن عبد الوهاب ٤٩
٧ - حول دار المقریزی	للأستاذ حسن عبد الوهاب ٧٥
٨ - القبائل العربیة فی مصر عند المقریزی	للدكتور ابراهیم أحمد رزقانه ٨١
٩ - أحوال مصر الاقتصادیة والاجتماعیة كما صورها المقریزی	للدكتور محمد محمود الصیاد ٩٥

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٤١٩٩ / ١٩٧١

الْجُمْهُورِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ الْمُتَّحِدَةُ

وَزَارَةُ الثَّقَافَةِ

المكتبة العربية

— ١١٤ —

[٧٨]

التأليف

[١٢]

التاريخ

القاهرة

١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م

المكتبة العربية

تصدرها

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

وزارة الثقافة

Bibliotheca Alexandrina



0694845

02
78